فصلٌ
في ذِكر شُعَيب عليه السَّلام[1]

قال مقاتل: ذكر اللهُ شعيباً في تسعة مواضع.

وشعيب اسم عربي وليس بأعجمي، وقد ذكرنا هذا[2].

واختلفوا في نسبه على أقوال:

أحدها: أنه شعيب بن عيفا بن نويب بن مدين بن إبراهيم عليه السلام. ذكره وهب ابن منبه وجدِّي في «التبصرة»[3].

والثاني: شعيب بن نويب بن مدين بن برعويل بن عيفا بن مدين بن إبراهيم، ذكره أبو الحسين ابن المنادي[4].

والثالث: شعيب بن بحرون بن نويب بن مدين، ذكره الثعلبي. وقال الشرقي بن القَطامي ـ وكان عارفاً بأنساب العرب ـ: اسم شعيب القديم يثرون بالعبرانية، وشعيب بالعربية[5]. قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ﴾[الأعراف: ٨٥] [هود: ٨٤] [العنكبوت: ٣٦] الآية.

واختلفوا في مدين على أقوال:

أحدها: أنه ابن إبراهيم لصلبه، قاله مقاتل.

والثاني: أنه مدين بن مديان بن إبراهيم عليه السلام، قاله أبو سليمان الدمشقي.

والثالث: أنه اسم ماء كان عليه قوم شعيب، قاله قتادة[6].

---

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٣٢٥، وتفسيره ١٢/ ٥٥٤ و١٥/ ٤٤٣، «عرائس المجالس» ص ١٦٧، تفسير الثعلبي ٤/ ٢٦٠ و٥/ ١٨٥ و٧/ ١٧٨، «المنتظم» ١/ ٣٢٤، «التبصرة» ١/ ٢٠٤، «زاد المسير» ٣/ ٢٢٨ و٤/ ١٤٨ و٦/ ١٤١، والبداية والنهاية ١/ ٤٢٥

(٢) انظر قصة آدم عليه السلام.

(٣) «التبصرة» ١/ ٢٠٤.

(٤) انظر «المنتظم» ١/ ٣٢٤.

(٥) انظر «المنتظم» ١/ ٣٢٤.

(٦) انظر «التبصرة» ١/ ٢٠٤، و«زاد المسير» ٣/ ٢٢٨.

obeikandl.com

والرابع: أنه اسم بلدة معروفة تنسب إلى مدين بن إبراهيم، قال الشاعر:

رُهبانُ مَدينَ والذين عَهِدتُهُم يُمْسونَ من ألمِ الفِراقِ هُمُودَا[١]

والخامس: أن مدين اسم دارِ شعيب. قال الجوهري: اسم قرية شعيب[٢]. والأيكةُ خلفها.

والسادس: أن مدين اسم القبيلة، روي عن مقاتل.

قال: ومعنى الآية: أرسلنا شعيباً إلى وَلَد مدين، وهي القبيلة؛ وعامة المؤرخين على أن مدين ابن إبراهيم لصلبه، ولهذا قال: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي: أرسلناه إليهم.

وذكر ابن قتيبة في «المعارف» عن وهب: أن شعيباً وبلعم كانا من ولد رهطٍ آمنوا بإبراهيم يوم أُحرق بالنار وهاجروا إلى الشام، وتزوجوا بنات لوط، فكلُّ نبيّ كان قبل بني إسرائيل وبعد إبراهيم من ولد ذلك الرهط. وحكى أيضاً أن جدَّة شعيب بنت لوط. ولم تكن مدين قبيلة شعيب، ولكنها أمة بعث إليها[٣]. وعامة العلماءِ على خلاف قول ابن قتيبة.

وقال ابن عباس: كان شعيب يسمَّى خطيبَ الأنبياء لفصاحته وحسن مراجعته قومه. وقيل: كانت معجزته في خطبته. وقيل: لم يسم معجزته، وإنما قال: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥] و﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [هود: ٨٤].

وقال الشَّرقي بن القَطامي: بُعِثَ إلى مدين وهو ابن عشرين سنة، وكانوا مع عبادتهم الأوثان يبخسون المكاييل والموازين، فنهاهم عن التطفيف وعبادة الأوثان وقال: يا قوم ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾[هود: ٨٤] أي: موسرين في خصب وعيش وسعة. وحذَّرهم غلاءَ السعر، وزوال النعمة، وحلول النقمة.

وقال قتادة: إنما كان يخاطبهم بلسان العرب، لأنه من العرب الأُوَل، من ولد

(١) هو كُثير عزة، انظر «ديوانه» ١٣٣.
(٢) «الصحاح» (مدن).
(٣) «المعارف» ص ٤١-٤٢.

المحض بن جندل بن يعصب بن مدين بن إبراهيم.

وقال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾[هود: ٨٥] أي: أتموهما ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ أي: بالعدل. وقال ابن عباس: إنما قال لهم: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾[هود: ٨٥] الآية، لأنه لم يؤمر بالقتال.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ من الأوثان، وكان كثير الصلاة والتلاوة ﴿أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾ وكانوا يقصُّون جوانبَ الدنانير والدراهم لينقصوها ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾[هود: ٨٧] أي: السفيه، كما يقال للديغ سليم. وقيل: على وجه الاستهزاء.

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ﴾ أي: خلافي ﴿أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾[هود: ٨٩] فقالوا في الجواب: ﴿مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ﴾[هود: ٩١] أي: ضعيف البصر. قال مجاهد: ثم عمي في آخر عمره، وقيل: إنه بعث وهو أعمى، وأنكر قوم هذا، وقالوا: ما بعث الله نبياً أعمى ولا به زمانةٌ، لما نذكر.

ثم قال: ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ﴾[الأعراف: ٨٦] يقال: وعدته في الخير، وأوعدته في الشر. وحكى جدي في «التبصرة» عن سعيد بن جبير أنه قال: كان قد ذهب بصره. قال: وقال ابن المنادي: إن ثبت هذا فهو كان في آخر عمره، لأنه لا يُبْعَثُ نبيٌّ أعمى. قال ابن المنادي: وقد قال أبو رَوْق: لم يبعثِ الله نبياً أعمى ولا به زمانة. وهذا القولُ أليطُ بالقلوب من قول سعيد بن جبير(١).

واختلفوا في الصراط على أقوال:

أحدها: أنهم كانوا يقعدون على الطريق يصدُّون من آمن به، قاله ابن عباس(٢).

والثاني: أنهم كانوا عشَّارين، قاله مجاهد والسدي(٣).

والثالث: كانوا يقطعون الطريق، قاله أبو رَوْق وابن زيد(٤).

---

(١) «التبصرة» ١/ ٢٠٦.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٢/ ٥٥٧.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ١٦٧، و«زاد المسير» ٣/ ٢٢٩.

(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ١٦٧، و«زاد المسير» ٣/ ٢٢٩.

و﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يصرفون المؤمنين عن إيمانهم ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾[هود: ١٩] أي السبيل، والعِوج: الزيغ. ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ﴾[الأعراف: ٨٦] يعني في العدد، وقيل: في الأموال، ثم قال: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾[هود: ٩١] أي: شتمناك، وقيل: قتلناك. ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: أتراعون رهطي ولا تراعون الله فيَّ ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾[هود: ٩٢] أي رميتم أمره وراء ظهوركم ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ﴾ العذاب ﴿إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾[هود: ٩٣] لكم العذاب، ولي وللمؤمنين الثواب.

ذكر عذابهم

قال الله تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾[هود: ٩٤] واختلفوا فيهم، قال ابن عباس: صاح بهم جبريل صيحةً فماتوا عن آخرهم و﴿نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾[هود: ٩٤].

وقال محمد بن كعب القُرَظي: عُذِّبَ أهلُ مدين بثلاثة أصناف من العذاب، صنف أخذتهم الرجفة، فخافوا أن تسقط عليهم ديارهم، فخرجوا منها، فأصابهم حرٌّ شديد، فبعث الله الظلة، فتنادوا هلموا إلى الظل، فدخلوا فيه، فصيح بهم صيحة واحدة، فماتوا كلهم. قال جدي رحمه الله في «التبصرة»: وهذا القول يدلُّ على أن أهل مدين هم أصحاب الظُّلَّةِ، وإليه ذهب جماعة من العلماء. وذهب مقاتل إلى أن أهل مدين لما هلكوا بُعِثَ شعيب إلى أصحاب الأيكة، فأهلكوا بالظلة(١). وقال مجاهد: ومعنى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦﴾[الشعراء: ١٧٦] أنَّ المراد به: شعيب، لأنه من المرسلين. والأيك: الشجر الملتفُّ، الواحدة: أيكة، فيها لغتان، أيكة ولَيْكَة. وقيل: الأيكة الغيضة، ولَيْكَة اسم القرية. وقيل: هما واحد، مثل مكة وبكة.

وقال أبو الحسين ابن المنادي: وكان أبو جاد، وهواز، وحُطي، وكلمون، وسعفص، وقرشت، ملوك أهل مدين، وهم بنو الأمحض بن جندل بن يعصب بن مدين بن إبراهيم. وكان أبو جاد ملك مكة وما والاها من تهامة، وكان هوَّز، وحطي،

(١) «التبصرة» ١/٢٠٦.

ملكي وجٍّ ونجد ـ والطائف هو وجٌّ ـ وكان سعفص وقرشت ملكي مدين، ثم خلفهم كلمون، وكان عذاب يوم الظلة في ملكه، فقالت حالفة ابنة كلمون ترثيه[1]:

كلمونٌ هدَّ ركني ... هُلْكُهُ وَسْطَ المحلَّهْ
سيِّدُ القومِ أتاه الـ ... حَتفُ ناراً وَسْطَ ظُلَّهْ
كوِّنت ناراً فأضحت ... دارهم كالمضمحلَّهْ

ثم إنَّ شعيباً أقام في أهل الأيكة يدعوهم إلى الله فما ازدادوا إلا عتوًّا، فسلَّط الله عليهم الحرَّ.

وقال قتادة: أما أهل مدين فأخذتهم الصيحة والرجفة، وأما أصحاب الأيكة فسلَّط عليهم الحر سبعة أيام ثم بعث الله عليهم ناراً فأحرقتهم، فذلك عذاب يوم الظلة.

وقال مجاهد: حبس الله عنهم الريح سبعة أيام، وسلط عليهم الحرَّ سبعة أيام حتى أخذت بأنفاسهم، فدخلوا الأسراب ليتبردوا فيها، فوجدوها أشدَّ حرّاً من الظاهر، فهربوا إلى البريَّة، فأظلتهم سحابة عظيمة، فوجدوا فيها بَرْدَ النسيم، فتنادوا تعالوا إلى الظلِّ والبرد، حتى إذا اجتمعوا تحتها أمطرت عليهم ناراً فاحترقوا.

فالحاصل أن شعيباً بُعث إلى أهل مدين وأصحاب الأيكة، وإنما اختلفوا إلى أيهم بُعث أولاً.

وقال قتادة: كان في قوم شعيب رجل يقال له: عمرو بن جَلْهاء، فلما رأى العذاب قال[2]:

يا قوم إنَّ شعيباً مُرْسَلٌ فذَرُوا ... عنكم سُميراً وعمرانَ بن شدَّادِ

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٦٨، و«التبصرة» ١/ ٢٠٦ـ٢٠٧.

(٢) إلى هنا تنتهي نسخة (ل) وجاء في آخرها: انتهى الجزء الأول يتلوه الثاني شعر عمرو بن جلهاء، تم بحمد الله وعونه، وكان الفراغ منه يوم الأحد مستهل شعبان المبارك، سبع عشر وسبعمائة، وكتبه العبد الفقير إلى الله تعالى أحمد بن العلم الحكيمي غفر الله له ولوالديه ولصاحب الكتاب ولجميع المسلمين آمين آمين والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم. وسأعتمد فيما يأتي من هذا الجزء إلى قصة زكريا ويحيى: مطبوعة الدكتور إحسان عباس، ونسخة (ب) رغم اختصاراتها الكثيرة والتقديم والتأخير فيها الذي بدأ من هنا.

obeikandi.com

إني أرى غيمةً يا قومُ قد طلعت ... تدعو بصوت على صمَّانةِ الوادي
وأنه لن تروا فيها غداةَ غدٍ ... إلَّا الرَّقِيم تُمَشِّي بين أنجادي

وسمير وعمران: كاهِنان، والرقيم: اسم كلب[١].

وقال ابن المسيب: لما انهزموا من الأسراب رُفِعَ لهم جبلٌ تحته أنهار وعيون، فاجتمعوا تحته، فقلب الله عليهم الجبل. وقال الله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ [هود: ٩٥] أي: لم يسكنوا بمغانيها، من قولهم غنيتُ بالمكان إذا أقمت به، والمغاني: المنازل.

وقال السدِّي: ولما هلكوا رثاهم بعضهم فقال[٢]:

ملوك بني حُطِّي وسَعفَص ذو النَّدى ... وهوز أرباب البنيّةِ والحجر
همُو مَلَكوا مُلْكَ الحجاز بأوجهٍ ... كمثلِ شُعاع الشمسِ أو هالةِ البدر
وهم وَطَّنوا البيت الحرامَ ورتَّبوا ... أموراً وسادوا بالمكارم والفخر

ذكر وفاة شعيب وموضع قبره

واختلفوا فيه: فقال علماء السير: أقام مدةً بعد هلاك قومه، ووصل إليه موسى عليه السلام، وزوَّجه بابنته. قال جدي رحمه الله في «التبصرة»: ثم خرج إلى مكة فمات بها وعمره مئة وأربعون سنة، ودفن في المسجد الحرام، حيالَ الحجر الأسود[٣].

قلت: وعند طبرية بالساحل قرية يقال لها: حطين فيها قبر يقال: إنه قبر شعيب، وما ذكره جدي أصحُّ؛ وكان شعيب قد أوصى إلى موسى.

وقال جدي رحمه الله في «أعمار الأعيان»: وتوفي بهذه السن: فروة ونفاثة، ومعاذ ابن حيان، ومرارة[٤].

وقال الشَّرقي بن قَطامي: إن الله بعث نبياً آخر بعد شعيب، يقال له: شعيب بن ذي مهدم بن حصورا، إلى بني حصورا، وهم أُمَّةٌ عظيمة من ولد يافث بن نوح، وكانت

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٦٨.
(٢) القائل هو: المنتصر بن المنذر. إن صحَّ ذلك، فالأبيات نسبت إليه في «الروض المعطار» ص ٧١.
(٣) «التبصرة» ١١/ ٢٠٧.
(٤) «أعمار الأعيان» ص ٩٩ـ١٠٠.

منازلهم بالسماوة، بين الشام والعراق، وكانت عمائرَ متصلةً، ومياهاً جاريةً، وبساتين مثمرة، وقد ذكرها الزبير بن بكار فقال: حدُّ السماوة من أطراف الشام إلى الحجاز والعراق إلى قنَّسرين وخناصرة إلى بلاد سورية ودِمشق وهي اليوم مفاوز وقفار. وكانوا في عيش ونعمة، فبعث الله إليهم شعيب بن ذي مهدم، فقتلوه، فأوحى الله إلى بعض أنبياء بني إسرائيل أن يأمر بعض الملوك بغزوهم، وقال له: تغزو العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم فغزاهم. ويقال: إنما غزاهم بخت نصر، ويقال: إنه صاح بهم صائح من السماء فماتوا، وهم الذين عنى الله تعالى بقوله: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾[الأنبياء: ١٢] في قول مقاتل.

ومن الحوادث التي كانت في أيام شعيب عليه السلام

منوجهر ـ بالجيم ـ وهو ابن أمان[١] بن إيرج بن أفريدون ـ الذي ذكرناه فيما تقدم ـ وبعث موسى وكان قد مضى في ملكه ستون سنة، وعاش في الملك ستين سنة أخرى، وكان عادلاً سمحاً جواداً محسناً. ويقال: هو أول من حفر الخنادق، ورتَّب آلات الحرب، وهو من أكابر ملوك الفرس، وكان مقيماً بالمشرق يغازي الترك، والحدُّ الفاصل بينه وبين الترك جيحون. ولما مضى من ملكه خمس وثلاثون سنة، أغارت الترك على بلاده، وقطعت جيحون، فجمع الموابذة، والأساورة، وعظماء المملكة، وأجلس موبذان عن يمينه، وهو عالم العلماء، ثم لبس التاج وثياب الملك، ثم قام خطيباً، وهو أول من خطب في الدنيا من الملوك[٢].

ذكر خطبته

قال علماء السير: قام قائماً على سريره فقاموا لقيامه، فقال: إنما قمتُ لأسمعكم فاقعدوا، فقعدوا، فحمد الله وأثنى عليه وقال بالفارسية كلاماً معناه: وإنما الناس ناس ما دفعوا العارَ عنهم والعدوَّ عن بلادهم، وقد نال العدوُّ من أطراف بلادكم، وليس ذلك إلا من ترككم جهادَهُمْ، وقلَّةِ مبالاتكم بهم، وإن الله إنما أعطانا هذا الملك

(١) في (ب) منوسهر الملك بن أمان وعند الطبري: منوشهر. انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٣٧٧.
(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٣٧٩، و«المنتظم» ١/ ٣٢٦ـ٣٢٧.

لنشكر فيزيدنا، أو نكفرَ فيعاقبنا، إنما الخلق للخالق، والشكرُ للمنعم، والتسليمُ للقادر، ولابدَّ من كون ما هو كائن، وإن التفكر نور، والغفلة ظلمة، والجهالة ضلالة، وقد ورد الأولُ، ولابدَّ للآخر من اللحاق به، وقد مضى قبلنا أصولٌ نحن فروعها، فما بقاء الفروع بعد ذهاب الأصول، وإنَّ الله أعطانا الملك، فله الحمد ونسأله الرشدَ واليقين والصدق، وإنما للمَلِك على أهل مملكته أن يطيعوه ويناصحوه، ويقاتلوا عدوَّه، وحقهم على الملِكِ إدرار أرزاقهم، وأن يرفقَ بهم، ويحسنَ إليهم، ولا يحملهم ما لا يطيقون، ولا يكلفهم ما هم عنه عاجزون. واعلموا أن الجند للمَلِك بمنزلة جناحي الطائر، فمتى نقص من الجناح ريشُهُ كان ذلك نقصاناً منه. وينبغي أن يكون الملِكُ جواداً صدوقاً، لا كذوباً ولا ظالماً، ولا حقوداً ولا حسوداً، ولا بخيلاً، وأن يملك نفسه عند الغضب، فإنه مسلَّط ويده مبسوطة، وأن يكون عفوّاً صفوحاً، ولأن يخطىء في العفو خيرٌ من أن يصيب في العقوبة. وينبغي للملك أن يتثبَّتَ في الأمر الذي فيه قتلُ النفسِ وإزهاقُ الروح، وإن رفع إليه عاملٌ ما فيه عقوبة، جمع ما بينه وبين المتظلِّم، فإن صحَّ عنده الحقُّ في جهةٍ مال إليها. ألا وإنَّ الملك ملكٌ إذا أطيع، فإذا خولف فهو مملوك. ألا وإنَّ العدوَّ قد طمع فيكم، فانهضوا إلى قتاله، وقد أَزَحْتُ العللَ بالأموال والسلاح، وأنا شريككم في الرأي إن شاء الله؛ وذكر كلاماً طويلاً.

ثم أمر بالطعام فمدَّت الموائد، وأفاض عليهم الإنعام، فدعوا له وشكروه، وكتبوا هذه الخطبة بماءِ الذهب، وأودعوها في خزائن الفرس، فما زالوا يتوارثونها. وعاش في الملك مئة وعشرين سنة، وسار في جيوشه إلى الترك، فدوَّخ بلادهم. وولي بعده أفراسياب، وقيل: ابن أفراسياب التركي، وسنذكره[1].

وفي زمان شعيب كان الحارث بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، ويلقب بالرائش، وسنذكره في ملوك اليمن، إن شاء الله تعالى.

❀ ❀ ❀ ❀

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٣٨٠_٣٨١_٣٨٢_٣٨٣، و«المنتظم» ١/ ٣٢٧_٣٢٨_٣٢٩.

فصل[١]

في ذِكر مُوسى بن عِمْران علَيه السَّلام[٢]

قال مقاتل: ذكر الله موسى في مئة وثمانية عشر موضعاً. وذكر أبو منصور الجواليقي في «المعرب» فقال: وموسى اسم النبي ﷺ أعجمي معرَّب، وأصله بالعبريَّة موشا. وقال أبو العلاء المعري: ولم أعلمْ أنَّ في العرب من سمي موسى في الجاهلية، وإنما حدث في الإسلام لما نزل القرآن، وسمى المسلمون أبناءهم بأسماء الأنبياء على سبيل التبرك[٣].

وأما نسبه فهو موسى بن عمران بن قاهث بن لاوي، ابن يعقوب. وقيل: موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب، واسم أمه يوخابذ. وكان بين موسى وإبراهيم ألف سنة.

وقال أهل التوراة: كان قبل موسى بن عمران نبيٌّ يقال له: موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب، عليه السلام، وقد ذكرناه. وكان موسى راعياً.

ذكر صفته

قال وهب: وكان موسى [عليه السلام آدم] جَعداً طُوالاً، كأنه من رجال أزْد شَنوءة. وقد وصفه النبي ﷺ لما نذكر. وكان في أرنبة أنفه شامة، وكذا على طرف لسانه.

قال ابن قتيبة في «المعارف»: ولا يعرف أحد قبله ولا بعده، كانت على طرف لسانه شامة غيره، وهي العقدة التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾﴾[طه: ٢٧] قال: وكان في وجه أخيه هارون شامة، وكان أخاه لأبيه وأمه. وكان

---

(١) في (ب): الباب السادس عشر. وليس لدينا في هذا القسم ـ إلى قصة زكريا ـ نسخة غيرها، وهي مختصرة، وسياقها مخالف في مواضع كثيرة منه لما في مطبوعة إحسان عباس، لهذا اعتمدنا المطبوعة، وأشرنا إلى ما في النسخة (ب) من زيادات وخلاف.

(٢) انظر: «تاريخ الطبري» ١/ ٣٨٥، «عرائس المجالس» ص ١٦٨ـ١٦٩، «المنتظم» ١/ ٣٣١، «التبصرة» ١/ ٢١٨.

(٣) «المعرب» ص ٣٥٠.

هارون أسنَّ منه بثلاث سنين، وكانت مريم بنت عمران أختهما أسنَّ منهما، وكانت تحت كالب بن يوفنَّا بن فارض به يهوذا بن يعقوب، عليه السلام.

وقال ابن قتيبة: لم يكن بين آل يعقوب وأيوب نبيٌّ، حتى كان موسى[(١)].

وقال ابن عباس: مات موسى وهارون ولم يريا الشيب.

فصل في الفراعنة

اختلفوا في فرعون موسى على أقوال:

أحدها: أن اسمه الوليد بن الريان، قاله مقاتل.

والثاني: الوليد بن مصعب بن معاوية بن أبي نمير بن الهلواش بن عمرو بن عملاق، وعملاق قبيلة، قاله قتادة.

والثالث: الوليد بن مصعب بن الريان.

والرابع: قابوس، ذكره في التوراة.

والخامس: مغيث، قاله ابن أبي نجيح.

والسادس: الوليد بن مصعب، قاله ابن أبي عون.

وقال قتادة: الفراعنة ثلاثة:

أولهم: سنان بن الأشل بن علوان بن العبيد بن عويج بن عمليق؛ وهو صاحب سارة، وكان في زمان الخليل عليه السلام بمصر.

والثاني: الريان بن الوليد بن ليث، وهو فرعون يوسف عليه السلام.

والثالث: فرعون موسى على الاختلاف في اسمه.

وقال وهب: فرعون موسى من القبط عاش أربع مئة سنة، وهو الرابع من الفراعنة، وكان أخبثهم، وذلك لأن فرعون يوسف لم يكن يؤذي بني إسرائيل، ويحسن إليهم ويكرمهم؛ وفرعون موسى عذبهم بأنواع العذاب، لما يذكر.

(١) «المعارف» ص ٤٣.

وقد قال قوم: إن فرعون يوسف هو فرعون موسى، وإنه عاش إلى زمان موسى عليه السلام، وهو وَهَم، بينهما زمان طويل.

وقال الجوهري: فرعون لقب الوليد بن مصعب ملك مصر، وكل عاتٍ متمرد فرعون، والعُتاةُ الفراعنة، وهو ذو فَرْعَنَةٍ، أي: دهاء ونكر[١].

وقال ابن الجواليقي: والفرعنة مشتقةٌ من فرعون[٢].

واختلفوا في صفته: قال وهب: كان قصيراً، ولحيته سبعة أشبار. وقيل: كان طوله قدر ذراع. وقيل: كان طُوالاً.

واختلفوا في أي مكان كان على أقوال:

أحدها: أنه مَعْلَثايا[٣] من بلد المَوصل، وفي هذا المكان قلعة تعرف بفرعون.

الثاني: أنه من بَلْخ، وكان هامان خبازاً ببَلْخ، وفرعون يومئذ فقير، قاله وهب.

والثالث: من بوشنج، قاله مقاتل.

والرابع: من أهل أصبهان، حكاه عبد الله بن المبارك.

فحكى يعمر بن بشر عن ابن المبارك، قال: كان عطاراً بأصبهان فأفلس وركبه دين، فخرج منها هارباً من الدَّين إلى الشام، فلم يستقمْ له حال، فأتى مصر، فرأى على باب المدينة وِقْرَ حملِ بطيخ، فسأل عن سعره، قيل له هذا بدرهم، فدخل المدينة فرأى وقرَ بطيخ، فسأل عنه، فقيل له: كلُّ بطيخة بدرهم، فقال: من هاهنا أقضي ديني، واشترى وقراً بدرهم، وأتى به باب المدينة، فنهبه البوابون حتى بقيت بطيخة واحدة، فباعها بدرهم، فقال: ما هذا؟ أما هاهنا أحدٌ ينظر؟ فقالوا: ملكنا مشغولٌ بلذته، وقد فوَّضَ الأمور إلى وزير له، ولا ينظر في شيء. فخرج فرعون إلى المقابر، فجعل لا يمكِّن أحداً من الدفن إلا بخمسة دراهم، وأقام على ذلك مدة لم يتعرض له أحد، فماتت بنت الملك فقال: هاتوا خمسة دراهم، فقالوا: ويحك، هذه بنت الملك، فقال:

---

(١) «الصحاح» (فرعن).

(٢) «المعرب» ص ٢٩٤.

(٣) في (ب) بدل المعكوفات: وكان من معلثايا، والمثبت من (ط).

هاتوا عشرة دراهم، فلم يزلْ يضاعفها عليهم حتى بلغ مئة درهم، فأُخبر الملك بحديثه فقال: ومن هذا؟ قالوا: عامل الموتى، فأرسل إليه الوزير فسأله عنه، فأنكر حاله، فأرسل إليه الملك وقال: من أنت؟ فأخبره بخبر البطيخ، وقال: ما صرتُ عاملَ الموتى إلا حتى يصلَ إليك خبري وتحضرني فأنصحك. استيقظْ لنفسك، واحفظ ملكك وإلا ذهب منك، فاستوزره وقتل الوزير، وفوَّض إليه الأمور، فسار في الناس سيرة حسنة، وكان عادلاً سخياً، يقضي بالحقِّ ولو على نفسه، فأحبه الناس. وتوفي الملك فولُّوه عليهم، فعاش زماناً طويلاً حتى مات منهم ثلاثة قرون وهو باقٍ، فبطر وتجبر وطغى وقال: أنا ربكم الأعلى(١).

وقال مجاهد: ولما خرج من خراسان تبعه هامان، لما كان بينهما من الصداقة فاستوزره.

والظاهر أن فرعون كان من القبط لما يذكر فيما بعد. وقد روي عن ابن عباس أنه قال: كان سخياً عادلاً، فلذلك دام ملكه. وقيل: إن ابن عباس هو القائل: كان يقضي بالحق على نفسه.

فصل في مولد موسى عليه السلام
وحاله مع فرعون إلى أن خرج من مصر

قال علماء السير، كوهب بن منبه والكلبي والسدي وغيرهم، قالوا: رأى فرعون في منامه كأن ناراً أقبلت من البيت المقدس فأحرقت بيوتَ مصر وقصرَ فرعون والقبط فلم يبق منهم أحد، فهاله ذلك، فجمع الكهنة والسحرة وأخبرهم بما رأى، فنظروا في علومهم فقالوا: يولد مولود في بني إسرائيل يكون هلاكك وهلاك قومك على يده. وذكر جدي رحمه الله في «التبصرة» وقال: كانت الكهنة قد أخبرت فرعون وقالت: يولد مولود في بني إسرائيل يكون هلاكك على يده(٢). ولم يذكر المنام، وهو أصح، لأن موسى إنما ولد بمصر لا ببيت المقدس، فالنار التي أحرقت بيوتَ مصر إنما خرجت من مصر.

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» ١/ ٣٣٢_٣٣٣.

(٢) «التبصرة» ١/ ٢١٨.

قالوا: فأمر فرعون بذبح كل مولود يولد في بني إسرائيل، ووكل الشُّرَط مع القوابل كلَّما وُلِدَ مولودٌ ذبحوه، وأسرع الموتُ في مشيخة بني إسرائيل، فقال رؤساء القبط لفرعون: قد أمرت بذبح الأبناء، وقد أسرع الموت في المشايخ، فإن دمت على هذا لم يبق لنا من يخدمنا. فأمر فرعون أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة، فولد هارون قبل موسى في السنة التي لم يذبح فيها، وولد موسى في ا لسنة التي يذبح فيها، بعد أن ذبح من بني إسرائيل سبعين ألفاً، وقيل: تسعين ألفاً. فلما ولد موسى دخل الطلب إلى بيت أمه، فألقته في التنور، فلما خرجوا قامت إلى التنور وهو يُسْجَر، فرأته سالماً، فألهمها الله أن صنعت تابوتاً من البرديِّ ـ وقيل: إنما صنعه رجل مؤمن من آل فرعون ـ فأوحى الله إلى يوخابذ، أمِّ موسى، أن اقذفيه في التابوت ثم اقذفيه في اليمِّ ـ يعني: في النيل ـ ففعلت ذلك بعد أن أرضعته.

فإن قيل: فلم أُمِرَتْ بإلقائه في الماء، قال أبو حنيفة ابن النُّوبي: ليختفي على الكهان أمره، لأن المولود إذا وقع في الماء خفي نجمه. وقيل أيضاً: قيل لأمِّه: اطرحيه في التلف لأنجيه بالتلف.

فسار الماء بالتابوت، وكانت قد زَفَّتَت[1] التابوت، ولفَّت موسى في القطن، فساقه القدر إلى نهرٍ يأخذ من النيل إلى دار فرعون، ووافق جلوسَ فرعون في ذلك الوقت على البركة، ومعه آسية بنت مزاحم، فدخل التابوتُ إلى البركة، فقال فرعون للخدم والجواري: أخرجوه، فأخرجوه، ففتح التابوت فرآه، فقال: عبراني، كيف أخطأه الذبح وأمرُ السنة؟ فقالت آسية: هذا أكبر من سنة، فدعه عسى أن يكون ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾[القصص: ٩] وكان لا يولد لفرعون إلا البنات، وأحبَّه فرعون حباً شديداً بحيث لم يصبر عنه لحظة. قال ابن عباس: فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾[طه: ٣٩]. قال قتادة: كان في عينيه ملاحة ما رآه أحدٌ إلا وأحبه.

فإن قيل: فأي مناسبة بين الماء والنار؟ ولم كان مبدأ موسى ومنتهاه معهما؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: لأن الماء مغرق، فكأن فيه إشارة إلى هلاك عدوِّه ونجاته. وأما النار فمن

---

(١) أي طَلته بالزِّفت لئلا يتسرب إليه الماء، وعند الثعلبي: قَيَّرت، أي طلته بالقار.

عاداتها الإحراق، ولكن ظهرت معجزات موسى بأن حصل له المقصود بالتكليم منها.

والثاني: لأن طبع النار على تليين الأشياء، وطبع الماء على الترطيب، فأثَّر ذلك في العصا التي كانت في معجزاته.

والثالث: أن في النار والماء بقاءَ العالم، فكذلك كان في موسى حياة الدِّين.

وقال الضحاك: لما ألقته أمه في النار خافت، فلما ألقته في اليم ندمت وجزعت، فربط الله على قلبها، فقالت لأخته مريم: ﴿قُصِّيهِ﴾[القصص: ١١] أي: اتبعي آثاره، فدخلت دار فرعون فوجدته عند آسية، وقد جمعت له المراضع فلم يقبل ثدياً، فقالت مريم أخته: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ [طه: ٤٠] أي: من يرضعه ويضمه إليه؟ فقالت آسية: نعم، فأرسلت إلى أمه فجاءت فأعطته ثديها فقبله وشرب ونام، فذلك قوله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾[طه: ٤٠] وفي مصحف أبيِّ بن كعب: «فرددناك إلى أمك كي تقر عينها بلقائك». فلما تمَّ رَضاعُهُ رَدَّتْهُ إلى دار فرعون، فأخذه يوماً في حجره، فمدَّ يده للحيته، فقال: عليَّ بالذابح، فقالت آسية: إنما هو صبيٌّ لا عقل له، وأحضرت ياقوتاً وجمراً فأخذ جمرة فوضعها في فيه، فاحترق لسانه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ [طه: ٢٧-٢٨].

فإن قيل: فأنَّى اشتبه بالنار؟ ويوم التنور ألقي فيها فلم تحرق لسانه؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه قال لفرعون يوماً: يا «بابا»، فعوقب لسانه ولم تعاقَبْ يده لأنها مَدَّتْ بلحية فرعون، ولهذا ظهرت المعجزة في اليد دون اللسان ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾[طه: ٢٢].

فإن قيل: فـ «بابا» مخرجها من الشفتين، قلنا: لابدَّ للسان من فعل لأنه آلة النطق، فقد وجدت المشاركة.

والثاني: أنه لم يحترق في التنور ليدوم الأنس بينه وبين النار إلى ليلة التكليم.

والثالث: أنها لم تحترق يده ليجاهد بها فرعون، وذلك بحمل العصا. وهذا الذي ذكرناه في بداية موسى ذَكَرَه مَنْ سمينا في أول الفصل من العلماء.

obeikandi.com

وقد روى الوالبي عن ابن عباس بمعناه قال: ذبح فرعون في طلب موسى تسعين ألفاً من بني إسرائيل، قيل: وكانت القابلة التي وكلها بأمِّ موسى مصافيةً لها، فلما ولد موسى ووقع على الأرض لاح نورٌ بين عينيه، فهالها وهابته، فقالت لأمِّه: احفظي ولدك، فهذا هو المطلوب الذي أُخْبرنا بأنه عدوُّنا لأنها كانت قبطيَّة، وهجم عليها الشرط، والتنور يُسْجَر، فلفَّته في خرقةٍ، وألقته فيه، وغشي على أمه من الخوف، وخرج الشرط فقالت أمه لأخته ـ واسمها مريم، وقيل: كانت له أخت أخرى يقال لها كلثم ـ: أين الصبي؟ فقالت: لا أعلم، فسمعت بكاءَه من التنور، فألهمها الله أن تصنع له تابوتاً وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ والوحي هنا: هو الإلهام. قال الأصمعي: قلت لأعرابية: ما أفصحك، فقالت: أبعد قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ فصاحة؟ فجمع فيها بين أمرين ونهيين وخبرين. فاشترته من نجار، فقال لها: ما الذي تصنعين به؟ فقالت: أضع فيه ابناً لي أخاف عليه كيدَ فرعون، فمضى النجار ليغمز عليها فأخرسه الله، فجعل يشير بيده فلم يفهموا إشارَتَهُ، ثم آمن بعد ذلك بموسى. فألقته في اليمِّ، وكانت لفرعون ابنة برصاء قد أعيا الأطباءَ داؤها، وقالت الكهنة: لا تبرأ إلا من قبل إنسان يوجد في البحر عند شروق الشمس، في وقت كذا وكذا، فاتفق جلوسُ فرعون في تلك الساعة على جانب النيل، وعنده ابنته البرصاء وآسية، وإذا بالتابوت يضربه الموج وقد تعلَّق بالشجر، فابتدروه بالسفن فأخذوه، فعالجوه فلم يقدروا على فتحه، ودَنَتْ منه آسيةُ ففتحته، فلاحَ نورٌ عظيم من بين عينيه، وقد جعل الله رزقه في إبهامه وهو يمصُّ فيدرُّ لبناً، وأخذت ابنة فرعون من ريقه فلطخت به برصها، فبرئت من وقتها، فقَبَّلَتْهُ وضمَّته إلى صدرها وفرعون ينظر، فقال الغواة من قومه: إنَّا نظنّ أن هذا المولود هو الذي يزيل ملكك، وإنهم خافوا عليه منك فألقوه في البحر، فاقتله، فهمَّ بقتله فمنعته آسية وقالت: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩] فوهبه لها، وقال: أما أنا فلا حاجة لي فيه. قال ابن عباس: لو قال فرعون مثل ما قالت آسية ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى﴾ [القصص: ٩] لهداه الله كما هداها، ولكن أحبَّ الله أن يجري فيه سابق علمه.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا﴾ [القصص: ١٠] أي: سالماً من كل شيء

إلا من ذكر موسى شفقةً عليه. وقال ابن عباس: جاءها إبليس فقال: كرهت أن يقتله فرعون فيكونَ لك أجره وثوابه، وتوليتِ أنت قتله فألقيته في اليم؟! فخافت. وقولها لأخته: ﴿قُصِّيهِ﴾ من القصص، وهو العلم بالخبر ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ [القصص: ١١] أي: بُعد، فجعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده. ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل مجيء أمِّه. وقال السُّدي: لما قالت أخته: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢] أخذوها وقالوا: قد عرفت هذا الغلام فدلِّينا على أهله، فقالت: ما عنيت بالنصح إلا للملك، فسكتوا عنها. قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ قال الكلبي: الأشدُّ إلى ثلاث وثلاثين سنة ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤] أربعين سنة، وقد ذكرناه.

ذكر قتله للقبطي

قال علماء السير: ولما ترعرع ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ وهي مدينة فرعون، ويقال لها: مَنْف ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ وكانت وقت القائلة. وقال السُّدي: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ وهم القبط، وقيل: الذي من شيعته هو السامري، والذي من عدوِّه طباخ فرعون واسمه فلينون. وكان القبطي قد أخذ الإسرائيلي ليحمل الحطب إلى مطبخ فرعون، فقال له موسى: دعه، فقال: إنما أخذتُهُ ليحملَ الحطب إلى مطبخ أبيك، وكان موسى يسمى ابنَ فرعون، لا يركب ولا ينزل إلا معه، فقال: دَعْهُ، فقال الطباخ: لقد هممتُ أن أحمله على ظهرك ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: مات، ولم يتعمد موسى قتله. والوكز بأطراف الأصابع ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: فرغ من أمره، فندم موسى على قتله، فدفنه في الرمل وقال: لم أومر بذلك، فإنه ﴿مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾[القصص: ١٥] ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي: ينتظر الأخبار من ناحية القبطي، أن يؤخذ به فيقتل ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ وقد لزمه قبطي آخر يريدُ أن يُسَخِّره، فاستغاث به الإسرائيلي على الفرعوني، فصادف موسى وقد ندم على قتل القبطي بالأمس، فقال للإسرائيلي: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾[القصص: ١٨] ومعناه: ما كفاني أن قتلتُ بالأمس نفساً بسببك حتى أقتلَ آخر، ثم مدَّ يده إلى الفرعوني وظنَّ الإسرائيلي أنه يريده، فقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى

﴿كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾[القصص: ١٩] فلما سمع الفرعوني مقالة الإسرائيلي، علم أن موسى قتل القبطيَّ، فأخبر فرعون، فأمر بقتل موسى، وعلم حربيل مؤمن آل فرعون وكان ابن عم فرعون فقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ أي: يتشاورون في قتلك ﴿فَٱخْرُجْ﴾ من هذه المدينة ﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[القصص: ٢٠] ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ موسى ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي: ينتظر الطلب ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[القصص: ٢١](١).

فصل في خروج موسى إلى مدين

وقد ذكرنا مدين، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي: قصدها خارجاً عن مصر وسلطان فرعون ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[القصص: ٢٢] أي: قَصْدَ الطريق إلى مدين، وبينها وبين مصر عشر ليال(٢). قال وهب: ولم يكن معه زاد ولا درهم ولا دينار ولا حذاء، وكان يأكل ورقَ الشجر، ويمشي حافياً، حتى سقط نعل قدميه، حتى ورد ماء مدين فـ ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[القصص: ٢٣] أي: جماعة، ﴿يَسْقُونَ﴾ مواشيهم ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي: تمنعان أغنامهما أو مواشيهما عن الاختلاط بأغنام الناس. وقيل: تحبسان أغنامهما لضعفهما، فإذا شربت أغنام الناس سقيا، وأصل الذِّياد: الطرد. ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي: شأنكما، لا تسقيان مواشيكما مع مواشي الناس؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ أي: لا نقدر أن نزاحم الناس، فإذا صدروا سقينا، ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾[القصص: ٢٣].

فإن قيل: فقولهما: «وأبونا شيخ كبير» زيادة على الجواب، قلنا: معناه: لا يقدرُ أن يسقيَ غنمنا فيريحنا.

وعامة العلماء على أنه شعيب الذي قدمنا ذكره، ذكره جدي في «التبصرة»(٣)، إلا الحسن البصري ومقاتل، فإن الحسن قال: يقول الناس إنه شعيب، وليس بشعيب،

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٧٤-١٧٥.
(٢) في (ط): عشرة أميال.
(٣) «التبصرة» ١/ ٢١٩.

ولكنه سيّدُ الماءِ يومئذ. وأما مقاتل فإنه قال: كان شعيب قد مات ودفن بين المقام وزمزم، وإنما هذا يثرون ابن أخي شعيب. قال: وقيل: اسمه يثربي.

فلما سمع موسى كلامهما رحمهما، فاقتلع صخرةً من على رأس بئر أخرى بقرب تلك البئر لا يطيق رفعها إلا جماعة من الرجال، ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ أي: إلى ظلِّ شجرة ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] والخير: الطعام، وهو في القرآن على وجوه: أحدها: الطعام، وقال الفراء: الخير اسم لكلِّ ممدوح، والشرُّ اسم لكل مذموم.

وقال ابن عباس: لقد قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ وإن بطنه قد لصق بظهره، وإنه لأحوجُ الناس إلى شِقِّ تمرةٍ، وإن خضرة البقل لتبين من باطن بطنه، وإنه لأكرمُ خلقِ الله وما أحد على وجه الأرض أعزُّ منه عند الله.

فلما رجعتا إلى أبيهما رأى الأغنام وهي حُفَّل، فقال: ما أعجلكما، قالتا: وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى لنا، فقال لإحداهما: اذهبي فادعيه لي، فأتته ﴿تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ مستترة بكمِّ درعها، وقد سترت وجهها بيدها، فقالت: ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾[القصص: ٢٥] فتبعها. قال مطرف بن عبد الله: لو كان عند نبيِّ الله شيءٌ ما تبعها، ولكن حمله على ذلك الجهد.

وسئل سفيان بن عيينة فقيل له: الرجلُ يعمل العمل لله يؤذِّن أو يؤمُّ أو يعين أخاه، فيعطى الشيء فيقبله، قال: نعم، ألا ترى أنَّ موسى عليه السلام لم يعمل للعمالة، وإنه عمل لله تعالى فعرض له رزق من الله فقبله، ثم قرأ: ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾.

وقال وهب: فمشى وهي بين يديه، فهبت الريح فعطفت ثوبها على ردفها، فقال لها: امشي خلفي فإننا لا ننظر إلى أعجاز النساء ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ﴾ يعني شعيباً ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[القصص: ٢٥] يعني فرعونَ وقومَهُ، أي: لا سلطانَ له على أرضنا.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ ليرعى أغنامنا ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾[القصص: ٢٦] قال لها: وما علمك بقوّته وأمانته؟ قالت: قَلْعُهُ صخرةً لا

يقلعها إلا جماعة من الرجال، وأما أمانته فإنَّ الريح هبَّتْ بثوبي فقال لي: كوني خلفي. فحينئذ ﴿قَالَ﴾ له ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ﴾ الآية. قال وهب: واسم الكبرى صفورا، والصغرى عبورا. وقال جدي في «التبصرة»: صفورا وليا[1]. ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ﴾ [القصص: ٢٧] أن تكون أجيري ثماني سنين، وفي حديث أبي ذرٍّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «تَزوجَ الصُّغرَى مِنهُما، وهي التي قَالت يا أبتِ، استأجِرهُ»[2].

قلت: وقد كان في شرعهم تزويج المرأة على رعي الغنم جائز، وكذا عندنا لأنه من باب القيام بمصالح الزوجة، وكذا لو تزوجها على زراعة أرضها، وفيه خلاف، ذكرناه في «شرح الجامع الصغير». وأصل المسألة: رجل تزوج امرأة على خدمة سنة والزوجُ حرٌّ، جاز النكاح ولا تكون الخدمة صداقاً، ولها مهر المثل عند أبي حنيفة، وقال محمد: لها فيه خدمة سنة، ولم يذكر في «الأصل» قول أبي يوسف، وقيل: هو مع محمد، وقيل: مع أبي حنيفة؛ وقال مالك والشافعي: لها خدمة سنة. وعن أحمد كالمذهبين. فالحاصل: أن محمداً يقول: استخدام الحرة زوجها حرام، فوجب الرجوع إلى القيمة كما لو تزوجها على عبدٍ فاستحق العبد. والشافعي يقول: لو تزوجها على رعي غنمها أو زراعة أرضها جاز كذا هذا. وأبو حنيفة يقول: استخدام المرأة زوجها إذلالٌ له وهوانٌ لأنه قوَّامٌ عليها، فصار كما لو سمَّى ما لا قيمة له، فإنه يجب مهر المثل. وأما في رعي الغنم وزراعة الأرض، ففي «الأصل» لا يصحُّ قياساً على الخدمة وعلى التسليم، فهو من باب القيام بمصالحها كما ذكرنا. وقد بسطنا القول في هذا في «شرح الجامع الصغير».

وقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧] أي: في الصحبة ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٨] أي: العشر أو الثمان، فليس لك أن تطالبني بأكثر من ذلك فتتعدَّى عليَّ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي: شهيد.

وقال وهب: ثم أمر شعيب ابنته أن تدفع إلى موسى عصا يدفع بها عنه وعن غنمه السباع، فدفعت إليه عصا، واختلفوا فيها:

---

(١) «التبصرة» ١/ ٢١٩.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٩/ ٢٩٦٦. وابن عساكر في «تاريخه» ٦١/ ٢٩.

قال عكرمة: هي التي أنزلت مع آدم من الجنة، وكان طولها عشرة أذرع من آس الجنة، ولها شعبتان تَقِدانِ في الظلام نوراً، واسمها: عمليق، يتوارثها الأنبياء كابراً عن كابر، حتى وصلت إلى شعيب.

وقال ابن عباس: لما مات آدم أخذها جبريل فكانت في علم الله، حتى وصلت إلى الشيخ، فدفعها إلى موسى.

وقال قتادة: أمر الله مَلَكاً، فنزل في صورة شيخ، فأودعها عند شعيب. فلما دفعها إلى موسى ندم وقال لابنته: فرَّطنا في الوديعة. ثم قال لموسى: ردَّ عليَّ وديعةَ الرجل، فامتنع، فبعث الله إليهما ملكاً، فتحاكما إليه، فقال: ضعوها في الأرض، فأيكم أقلَّها فهي له، فوضعها على وجه الأرض، فذهب الشيخ ليقلها فلم يطق، ورفعها موسى فذهب بها، فقال الشيخ: إن لها لشأناً[1].

وقال مقاتل: كان بأرض مدين تنين في أرض مخصبة، ولا يتجاسر أحدٌ أن يدنو من تلك الأرض، فقال له شعيب: احذر من التنين، فجاء موسى يوماً بالغنم فرأى الخصب فأعجبه، فأرسل غنمه ترعى، ونام فجاء التنين، فقامت العصا تحاربه فقتلته، فانتبه موسى، وإذا بالتنين مقتول والعصا ملوَّثة بدمه، فجاء به إلى شعيب، فقال: ألم أقل لك إن لها شأناً[2].

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾[القصص:٢٩] أي: أتمه وفرغ منه، والأجل: انتهاء الشيء. وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس، قال: سئل رسول الله ﷺ أيَّ الأجلين قضى موسى؟ قال: «أبعدَهُما وأطيبَهما وأوفاهُما وأتمهُما»[3].

واختلفوا ما الذي أنكحه منهما، قد ذكرنا عن النبي ﷺ أنه أنكحه الصغرى[4].

وقيل: الكبرى.

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٧٧ـ١٧٨.
(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ١٧٩ـ١٨٠.
(٣) أخرجه الحاكم ٢/ ٤٠٧، وفيه حفص بن عمر العدني واه، وانظر «عرائس المجالس» ص ١٧٧.
(٤) انظر الصفحة السابقة.

قلت: وقد أخرج جدي رحمه الله في كتاب «الأحاديث الواهية» بمعنى هذا عن أبي ذرٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سئلت أيُّ الأجلين قضى موسى؟ قلْ: خيرهما وأبرهما، وإن سئلت أي المرأتين تزوج موسى؟ فقل: الصغرى منهما، وهي التي جاءت فقالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ فقال لها: ما رأيت من قوته؟ قالت: أخذ حجراً ثقيلاً فألقاه عن البئر، قال: وما رأيتِ من أمانته؟ فقالت: قال لي: امشي من خلفي ولا تمشي أمامي»[1]. ثم قال جدي: هذا حديث لا يصحُّ عن رسول الله ﷺ، في إسناده عوبد بن أبي عمران، قال يحيى بن معين: ليس بشيء، وقال البخاري: منكر الحديث.

وأنبأنا جدي رحمه الله قال: حدثنا محمد بن ناصر بإسناده عن عُلَيّ بن رباح قال: سمعت عُتبة بن النُّدَّرِ يقول: كُنَّا عند رسولِ الله ﷺ، فقرأ ﴿طسٓ﴾ حتى بَلغ قِصَّة مُوسى عليه السلام، فقال: «إنَّ مُوسى آجَرَ نفسَه ثَمانِيَ سِنينَ أو عَشراً على عِفَّةِ فَرجِهِ وطَعَامِ بَطنِه». أخرجه ابن ماجة القزويني[2] عن عتبة، ولم يخرجه أحمد ولا البخاري ومسلم. وليس في الصحابة من اسمه عتبة بن النُّدَّر، بنون ودال مهملة غيره.

وقال مجاهد: أقام موسى بعد فراغ الأجل عشر سنين أخرى، فكمل عشرين سنة؛ وعامة العلماء على أنه لما قضى الأجل سار بأهله كما أخبر الله تعالى.

فصل فيما جرى لموسى بعد انفصاله من مدين وقصة النار والتكليم والرسالة ونحو ذلك

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ﴾[القصص: ٢٩] الآية. قال السُّديُ وغيره: لما طال مقام موسى عند الشيخ، اشتاق إلى والدته وأخيه، فاستأذن الشيخ في زيارتهما فأذن له، فسار بزوجته يطلب أرض مصر، وكان في أيام الشتاء، فحاد عن الطريق، فسار في البرية غير عارف بطرقها، وكانت امرأته حاملاً،

(١) لم نقف عليه في الأحاديث الواهية، وقد أخرجه البزار (٢٤٤٤) (زوائد)، والطبراني في الأوسط (٥٤٢٦)، والصغير (٨١٥)، وابن أبي حاتم في تفسيره ٩/ ٢٩٦٦، والخطيب في تاريخه ٢/ ١٢٨.
(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٤٤٤).

فألجأه المسير إلى جانب الطور الأيمن الغربي في ليلة مظلمة شديدة البرد، فأخذ الطلقُ زوجته فجعل يكادح المقادح فلم تورِ نوراً، فقال لأهله أي لزوجته: ﴿ٱمْكُثُوٓاْ﴾ أي: أقيموا ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾[القصص:٢٩] أي: أبصرت. وقال مجاهد: إنما رأى نوراً ولكن وقع الإخبار عما كان في ظنه وما يطلبه ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ﴾ شعلة ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ وقال مقاتل: إنما قال: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾[طه:١٠] لأنه كان قد ضلَّ الطريق، فعلم أن النار لا تخلو من موقد ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[القصص:٢٩] أي: تستعيذون من البرد.

قال ابن عباس: أمر الله تعالى النيران في تلك الليلة أن تخمد فلا تظهر في الأرض نار.

وأنبأنا جدي رحمه الله في «التبصرة» قال: أنبأنا محمد بن أبي منصور بإسناده عن وهب بن منبِّه، وذكر السُّديُّ وقتادة ومجاهد بمعناه دخل حديث بعضهم في حديث بعض، قالوا: خرج موسى في ليلة مثلجة شاتية فولد له ابنٌ في الطريق، فحاد عن الطريق، فأخذ يقدح فلم تورِ المقدحة ناراً، فبينما هو كذلك إذ لاحت له نار وكانت ليلة الجمعة، فقال لأهله: ﴿ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ [طه: ١٠] أي: شعلة، والقبس: ما اقتبس من عيدان ونحوه. فلما قرب من النار، قال وهب: فإذا هو بنار عظيمة تفور من فروع شجرة خضراء شديدة الخضرة، لا تزداد النار فيما يرى إلا عظماً وتضرُّماً، ولا تزداد الشجرة على شدة الحريق إلا خضرةً وحسناً، فوقف ينظر لا يدري ما يصنع في أمرها، إلا أنه قد ظنَّ أنها شجرة تحترق، فوقف وهو يطمع أن يسقط منها شيء فيقتبسه. قال مجاهد: وسمع تسبيح الملائكة فخاف خوفاً عظيماً. قال وهب: فلما طال ذلك عليه أهوى إليها بضِغْثٍ في يده ليقتبس منها شيئاً، فمالت نحوه كأنها تريده، فاستأخر عنها ثم عاد، فلم يزل كذلك، فما كان بأسرع أو بأوشك من خمودها، فتعجَّب وقال: إن لهذه النار لشأناً. فوقف متحيراً، فإذا بخضرتها قد صارت نوراً، عموداً ما بين السماء والأرض، فاشتدَّ خوفه وكاد يخالَطُ في عقله من شدة الخوف. وقال مجاهد: صارت عموداً من نور له شعاع مثل شعاع الشمس تكلُّ دونه الأبصار. فعند ذلك خاف ووضع يده على عينيه ولصق بالأرض، فسمع حسّاً وشيئاً لم

يسمع السامعون مثله. فلما اشتدَّ كربه وكاد أن يذهب عقله ـ رجع الحديث إلى وهب بن منبه ـ فنودي من الشجرة يا موسى، فأجاب سريعاً وما يدري من دعاه، فقال: لبيك، أسمعُ صوتك ولا أرى مكانك، فأين أنت؟ قال: أنا فوقك ومعك وأمامك وأقرب إليك منك. فلما سمع موسى ذلك علم أنه لا ينبغي ذلك إلا لربِّه تعالى، فأيقن به فقال: كذلك أنت يا إلهي، أكلامك أسمعُ أم رسولك؟ قال: بل أنا الذي أكلمك. وقال السُّدي: فذلك معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ أي: من جانبه ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ أي: المقدسة ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ وكانت من العُلَّيق في قول السُّدي. وفي قول مجاهد: من العَوسج. وفي قول مقاتل: من الصنوبر، وقال ابن مسعود: كانت الشجرة مثمرة خضراء ترفُّ. وقال قتادة: ناداه ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

قال مقاتل: عرض له الشيطان في ذلك الوقت فقال له: يا موسى، أتدري من يكلمك؟ قال: نعم، الله ربي، فقال: وإلهك يتكلم؟ إنما كلمك شيطان من جندي. قال له موسى عليه السلام: كذبت، قال: ولم؟ قال: لأني سمعت الكلام من الجهات الست، من فوق، ومن تحت، وعن يميني وشمالي، وورائي وأمامي، وسمعت الموجودات تعظِّم ربي، فعلمتُ أن أحداً لا يتجاسر أن يقول: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[القصص: ٣٠] إلا الله، فانصرف الملعون خاسئاً.

قال مجاهد: قوله: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ «إني»: للتعريف، و«أنا»: للتشريف، و«الله» تعالى: للتوقيف.

وقد روي في هذا المعنى حديث أخرجه أبو أحمد بن عَدي عن ابن مسعود عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لما كَلَّمَ اللهُ موسى، قال: من ذا العبري، أو العبراني، الذي يكلِّمني من الشجرة؟ فقال: أنا اللهُ»[١]؛ قال جدي رحمه الله: إلا أنه حديث موضوع، فإن كلام الله لا يشبه كلام المخلوقين، والمتهم بوضعه حميد بن علي، وقيل: ابن عطاء، وقيل: ابن عمار. وفي هذا الحديث[٢]: أنَّه كانَ على مُوسى جُبَّةُ صُوفٍ، وفي رجليه نعلان من

(١) أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣٩٩)، ولم أقف عليه عند ابن عدي.

(٢) وهو ما أخرجه ابن عدي في الكامل ٢/ ٢٧٢ في ترجمة حميد بن علي.

جِلدِ حِمارٍ غَيرِ مُذكًّى.

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾[مريم: ٥٢] أنه أُدنيَ حتى سمع صرير الأقلام في اللوح المحفوظ.

وقال الحسن البصري: ولما كلم الله موسى ضرب على قلبه صفائح النور، ولولا ذلك لما أطاق سماع كلام الله تعالى.

رجع الحديث إلى وهب: قال: فقال الله تعالى: ادن مني، فجمع موسى يديه في العصا، ثم تحامل حتى استقلَّ قائماً، وأرعدت فرائصه حتى اختلفت واضطربت رجلاه، ولم يبق منه عظم يحمل آخر، فهو بمنزلة الميت، إلَّا أنَّ روح الحياة يجري فيه، ثم زحف على ذلك وهو مرعوب، حتى وقف بمنزلةٍ قريباً من الشجرة، فقال له الربُّ تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٧ـ١٨] أي: أعتمد إذا عييت. قال: وما تصنع بها؟ قال: ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨] قال مجاهد: ومعنى أتوكأ عليها: أي أعتمد إذا عييت من المشي، وأهش: أخبط بها الشجر ليتناثر الورق فتأكل منه الغنم. وقرأ عكرمة: أهس، بالسين المهملة، أي: أزجر بها الغنم، وهما لغتان، والمآرب: الحاجات.

وقال ابن عباس: كان له فيها ألف حاجة، منها أنه كان يحمل عليها زاده وسقاءه، وإذا خاف حدَّثته وآنسته، وإذا جاع أو عطش ضرب بها الأرض فيظهر الطعام والشراب، ويحارب العدوَّ، ويدفع عنه الوحوشَ والهوام، وإذا اشتهى ثمرةً غرزها في الأرض فصارت غصناً وأورقت وأثمرت، إلى غير ذلك.

وروى مجاهد أنها كانت من لوز، والصحيح أنها كانت من آس الجنة[1].

فإن قيل: فقد علم الله تعالى حال العصا فلمَ كان أول كلامه له: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾؟ فالجواب: إن هذا على وجه المباسطة له، لأنه لمَّا رأى النار، وسمع تسبيح الملائكة، وشاهد ما حكيناه، خاف وصار كل عضو منه على حدة، فباسطه الله

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٧٨ـ١٧٩.

تعالى بذلك، ليثبِّت جنانه[1] فيصلح حينئذ لحمل الرسالة إلى فرعون.

رجع الحديث إلى وهب، قال: وكان لها شعبتان، ومحجن تحت الشعبتين ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾[طه: ١٩] فظن أنه يقول: ارفضها، فألقاها، ثم حانت منه نظرة فإذا هي أعظم ثعبان نظر إليه الناظرون يدبُّ كأنه يلتمس شيئاً يريد أخذه، يمر بالصخرة مثل الخَلِفَة[2] من الإبل فيلتقمها، ويطعن بالناب من أنيابه في أصل الشجرة العظيمة فيقتلعها ويبتلعها، عيناه توقدان ناراً، وقد عاد المحجن عرفاً فيه شعر مثل النيازك، وعادت الشعبتان فماً مثل القليب الواسع، فيه أضراس وأنياب لها صريف، فلما عاين ذلك موسى ولى مدبراً، فذهب حتى أمعن في البريَّة، ثم ذكر ربه فوقف استحياءً منه، فنودي: يا موسى ارجع حيث كنت، فرجع وهو شديدُ الخوف، فقال: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾[طه: ٢١] وعلى موسى يومئذ مِدْرَعة صوف، قد خلَّها بخلال من عيدان، فأثنى طرف مدرعته على يده ليأخذها، فقال له مَلَكٌ: أرأيت يا موسى، لو أذن الله لما تحاذر أكانت المدرعة تغني عنك شيئاً؟ قال: لا، ولكني ضعيف، ومن ضعفٍ خلقت، فكشف عن يده ووضعها في فم الحية حتى سمع حسَّ الأضراس والأنياب، ثم قبض فإذا هي عصاه التي عهدها.

فإن قيل: فلمَ خاف موسى من العصا ولم يخف إبراهيم من النار؟ فالجواب: إن تحويل العصا من فعل الله تعالى، وإيقاد النار من فعل الخلق، وقيل: خاف موسى أن تلك الحية التي أُخرج آدم من الجنة بسببها، أو من جنسها، فلهذا خاف، والسعيد مَنْ وُعِظَ بغيره. وقيل: لما أضافها إلى نفسه بقوله: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ أراه أن من اتكل على غيره تعقبه الفرار.

وقال ابن عباس: ولما حصل في الوادي نودي: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢] واختلفوا في معنى الأمر بإلقاء نعليه على أقوال:

أحدها: أنهما كانا من جلد حمار غير مدبوغ، قاله قتادة، وابن مسعود رواه مرفوعاً، ولا يصحّ، وقد ذكرناه في حديث العبريّ.

---

(١) في (ب): «جأشه».

(٢) هي الحامل من النوق.

والثاني: إنما أمره بإلقاءِ نعليه لتنال قدماه من بركة تلك الأرض المقدسة، لأنها قُدِّسَتْ بالكلام، قاله عكرمة.

والثالث: أنه علَّمه التواضع، ألا ترى أن من طاف بالبيت فإنه يخلع نعليه تواضعاً، قاله الحسن.

والرابع: أن المراد بالنعلين الزوجة، فكأنه يقول قد حضرت في هذه الحضرة، فلا تشغل قلبك من ناحيتها، ألا ترى أنَّ من رأى في منامه كأنه لبس نعلين فإنه يتزوج امرأة، قاله ابن نجيح.

واختلفوا في قوله: ﴿طوى﴾ قال الضحاك: هو اسم الوادي، وهو مستطيل عميق مثل الطويّ[1] في استدارته. وقال الحسن: طوى، أي: مطهر.

﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣﴾[طه: ١٣] أي: اصطفيتك، إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾[طه: ١٥] هذا خطاب للعرب بما يفهمونه.

فإن قيل: فقد قال الله تعالى في موضع: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ﴾[طه: ٢٠] وفي مكان آخر: ﴿تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾[النمل: ١٠] وهي الحية الصغيرة، وفي موضع آخر: ﴿ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ﴾[الأعراف: ١٠٧ ، الشعراء: ٣٢] فكيف الجمع بين هذا؟ فالجواب: إن قوله كأنها جان عبارة عن ابتداء حالها، ثم صارت حية، وتورمت حتى صارت ثعباناً، والحية تجمع الكبير والصغير والذكر والأنثى.

فإن قيل: فما معنى: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾[القصص: ٣١] فالجواب: أن الجناح أسفل الإبط، وقيل: هو الإبط، والرَّهْب: الفزع. ﴿تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ أي: برص ﴿ءَايَةً أُخۡرَىٰ﴾ [طه: ٢٢] سوى العصا، فأخرج يده من مِدْرَعته بيضاء لها شعاع كالشمس ﴿لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ۝٢٣﴾[طه: ٢٣] أي: الآية الكبرى.

فإن قيل: ذكر هاهنا ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾[طه: ٢٢] وفي موضع آخر ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾[القصص: ٣١] قلنا: المعنى لا يختلف، لأن معنى الكلام: إذا هالَكَ ما رأيتَ من شعاع يدك، فأدخلها في جيبك، تعدْ إلى حالتها الأولى.

---

(١) الطوي: البئر.

وقال الربيع بن أنس: أمره الله أن يضع يده على صدره ليذهب عنه الرعب عند معاينة الحية، قال: والدليل عليه هذه الآية، لأن الرهب هو الخوف والفَرَق.

وقال مقاتل: الرهب الكمُّ بلغة حمير، فعلى هذا معناه، أدخلها في الكم.

ثم قال له الله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾[طه: ٢٤] أي: علا وتكبَّر وكفر، فادعه إلى عبادتي، واعلم أني قد ربطتُ على قلبه، فقال: يا رب، كيف تأمرني بهذا وقد ربطتَ على قلبه؟ فقال له ملك: يا موسى انطلق، فإنَّا اثنا عشر ألف خازن من خُزَّان الرِّيح، لا ندري ما هذا ولا علمناه، فحينئذ قال موسى: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ [طه: ٢٥] أي: بالإيمان والنبوَّة، والشرح الكشف ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾﴾[طه: ٢٦] سهِّله لأُبلِّغ الرسالة إلى فرعون ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾﴾[طه: ٢٧] قال ابن عباس: كان في لسانه رتَّة، وقيل: تمتمة، وقيل: هي الشامة التي ذكرناها، وقيل: مكان الجمرة التي أحرقت لسانه ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾﴾[طه: ٢٩] أي: معيناً وظهيراً، ثم بيَّن من هو فقال: ﴿هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾﴾ ﴿أَشْدُدْ[1] بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾﴾ أي: أقوي به ظهري ﴿وأُشْرِكْه[1] فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾[طه: ٣٠-٣٢] أي: في الرسالة.

قال ابن عباس: لما أمره الله بالرسالة قال: ﴿إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾[القصص: ٣٣] ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ وأحسن بياناً ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا﴾ [القصص: ٣٤] أي: معيناً، فقال الله له: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي: نقويك ونعينك، وكان هارون يومئذ بمصر ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ أي: قوةً وحجَّةً وبرهاناً ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥].

وقال ابن عباس: لما قتل القبطيَّ كان له اثنتا عشرة سنة، وأقام بمدين عشرين سنة.

وقال وهب: لما قتل القبطيَّ كان له عشرون سنة، وأقام عند شعيب عشرين سنة، حتى تمَّ له أربعون سنة فصلح كليماً ونبياً، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾.

وقال مقاتل: وقوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ وهي اليد والعصا. ﴿وَلَا تَنِيَا﴾[طه: ٤٢] تضعفا وتفترا وتقصرا ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ أي: عتا وتجبر ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾[طه: ٤٣] أي: لا تعنفاه ولا تغلظا له. وقال عكرمة: معناه كنِّياه

(١) أَشدُد، بفتح الهمزة، وأُشركه بضمها، وهي قراءة ابن عامر ويحيى بن الحارث وأبو حيوة والحسن وعبد الله ابن أبي إسحاق. انظر السبعة ٤١٨، والتيسير ١٥١، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨.

فقولا: يا أبا الوليد، وقال السدي: ولينا له لا تَجْبَهاه بمكروه، بل عِدَاه على الإيمان مُلكاً واسعاً لا يُنْزع عنه إلا بالموت.

فإن قيل: فقد قال لمحمد ﷺ ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾[التوبة: ٧٣ والتحريم: ٩] قلنا: لأن طبع سيدنا ونبينا محمد ﷺ اللين واللطف، وطبع موسى على الصلابة والقوة، فقال له: ارفق بفرعون ولا تُقَرِّعهُ بين الملأ، فإن الملوك يأنفون من التوبيخ بين الناس، ولهذا قالوا: لا ينبغي لأحد أن يقابل السلطان بما يكره، بل يكتب النصائح في ورقة.

وأمر الله هارون أن يخرج من مصر فيلتقي أخاه على رحله ففعل، وقيل غير هذا، لما يذكر.

فإن قيل: فقد علم الله منه أنه لا يؤمن، فما معنى قوله: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾[طه: ٤٤] فالجواب: إنما أراد الله تركيب الحجة عليه، لاحتمال أنه إذا رأى العذاب يقول: لا ذنب لي، فيقال له: قد أُنذرت قبل ذلك، فلا عذر لك.

رجع الحديث إلى وهب بن منبه: فقال له الله سبحانه وتعالى: يا موسى، إني قد أقمتك اليوم مقاماً لا ينبغي لبشر بعدك أن يقوم مقامك، أدنيتك وقرَّبتك حتى سمعتَ كلامي، وكنتَ بأقرب الأمكنة مني، فانطلق برسالتي فإنك بعيني وسمعي، وإن معك يدي وبصري، فأنت جند عظيم من جنودي، بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقي، بطر نعمتي، وأمِن مكري، وغرَّته الدنيا، حتى جحد حقي وأنكر ربوبيتي، وعُبد دوني، وزعم أنه لا يعرفني، وإني أقسم بعزتي، لولا العذر والحجة اللذان وضعت بيني وبين خلقي لبطشت به بطشة جبار يغضب لغضبه السماوات والأرض والجبال والبحار، فإن أمرتُ السماوات حصبته، وإن أمرت الأرض ابتلعته، وإن أمرت الجبال دمَّرته، وإن أمرت البحار غرَّقَته، ولكن هان عليَّ وسقط من عيني، ووسعه حلمي، وحُق لي، أنا الغني لا غنيَّ غيري، فبلِّغه رسالتي، وادعه إلى عبادتي وتوحيدي، وذكِّره بأيامي(١)، وحذِّره نقمتي وبأسي، وأخبره أني إلى العفو والمغفرة أسرع مني إلى الغضب والعقوبة.

ولا يرعك ما ألبَسْتُهُ من لباس الدنيا، فإن ناصيته بيدي، ليس يطرف ولا ينطق ولا

(١) في (ب): «بآياتي».

يتنفس إلا بإذني، قل له: أجب ربك فإنه واسع المغفرة، وقد أمهلك أربع مئة سنة، وفي كلها أنت مبارزه بالمعاصي وهو يمطر عليك السماء، وينبت لك الأرض، ولم تسقم ولم تهرم، ولم تفتقر ولم تُغْلَب، ولو شاء أن يسلبك ذلك فعل، ولكنه حليم ذو أناة، وجاهده بنفسك وأخيك وأنتما محتسبان بجهاده، فإني لو شئت أن آتيه بجنودٍ لا قِبَلَ له بها لفعلت، ولكن ليعلم هذا العبد الضعيف الذي أعجبته نفسه وجموعه، أن الفئة القليلة ـ ولا قليل معي ـ تغلب الفئة الكثيرة بإذني.

ولا تعجبكما زينته، ولا ما تمتع به، ولا تمدّان إلى ذلك أعينكما، فإنها زهرة الحياة الدنيا، وزينة المترفين، وإني لو شئت أن أزينكما بزينة هي أعظم من زينته، حتى يعلم أن مقدرته تعجز عن ذلك، لفعلت، ولكن أرغب بكما عن ذلك وأزويه عنكما، وكذلك أفعل بأوليائي، إني لأذودهم عن نعيمها كما يذود الراعي الشفيقُ إبلَه عن مراتع الهلكة ومبارك الغرَّة، وما ذاك لهوانهم عليَّ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي موفراً سالماً.

واعلم أنه لم يتزين العباد لي بزينة هي أبلغ من الزهد في الدنيا، فإنها زينة المتقين، عليهم منها لباسٌ يُعْرَفون به من السكينة والخشوع ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[الفتح: ٢٩] أولئك أوليائي حقاً، فإذا لقيتهم فذللْ لهم قلبك ولسانك، واخفضْ لهم جناحك، واعلم أن من أهان لي ولياً أو أخافه فقد بارزني بالمحاربة، وعرض نفسه للهلكة، وإني لأَسْرَعُ إلى نصرة أوليائي من الليث الحَرِب، أفيظن الذي يحاربني أنه يقوم لي، أو يظنُّ الذي يبارزني أنه يسبقني، أو يظنّ الذي يضادني أنه يعجزني أو يفوتني، كيف وأنا في الدنيا والآخرة، لا أَكِلُ نصرتهم إلى غيري[1].

قال مقاتل بن سليمان في «المبتدأ»: ولما عزم موسى على قصد فرعون، قال جبريل: يا إله العالمين، أترسله وهو عريان، وعند عدوّه من العُدَد والعَدَد ما قد علمت، فقال له الله تعالى: ادخلْ الجنة وانظرْ أعظم قلنسوةٍ فيها، فأَلْبِسْهُ إيّاها، وانظر أوطأ مركب فأركبه إياه، وانظر أصرم سيفٍ فأعطه إياه، واختر له أشجع جند، فدخل

(١) انظر «كتاب الزهد» ص ٨٢ـ٨٣، و«عرائس المجالس» ص ١٨٢.

الجنة وخرج وليس معه شيء، فقال الله تعالى: فأين ما ذكرت لك؟ قال: يا إلهي ما وجدت قلنسوةً أعظم من الهيبة، ولا مركباً أعظم من التوفيق، ولا سيفاً أقطع من الحجة، ولا جنداً أبلغ من النصرة، ولا لباساً أتمَّ من العافية، فقال الله تعالى: أعطه ذلك كله، فأعطاه إياه.

وقال مجاهد: لما وصل موسى إلى مصر طرق والدته ليلاً، فنزل عليها وهي لا تعرفه ولا يعرفها، وجاء هارون في بعض الليل، فرآه فسأل أمّه عنه، قالت: ضيف، فجلس إليه وتحادثا ساعة، فقال له: ما اسمك؟ قال: موسى، قال: وأنت؟ قال: هارون، فقاما وتعانقا وبكيا، وبكت العجوز، فقال له موسى: إن الله قد أرسلني إلى فرعون وأنت معي، فقال هارون: سمعاً وطاعة، ثم قاما ومضيا إلى فرعون، إلى مدينة مَنْف(١).

رجع الحديث إلى وهب، قال: فأقبل موسى وهارون إلى فرعون في مدينة، قد جعل حولها الأُسد، في غيضة قد غرسها، والأُسد فيها مع سُوَّاسها، إذا آسَدَتْها على أحد أكلته. وللمدينة أربعة أبواب في الغيضة، فأقبل موسى من الطريق الأعظم الذي يراه منه فرعون من مناظرة، فلما رأته الأُسد صاحت صياح الثعالب، فأنكر ذلك سُوَّاسها، وخافوا من فرعون، وأقبل موسى حتى انتهى إلى باب قبة فرعون، فقرعه بعصاه، وعليه جبة صوف وسراويل صوف، فلما رآه البواب عجب من جرأته، وقال: أتدري بابَ من تضرب؟ إنما تضرب بابَ سيدك، فقال: أنا وأنت وفرعون عبيد الله تعالى، فأخبر البواب الذي يليه حتى بلغ أدناهم، وكانوا سبعين حاجباً، كل حاجب تحت يده من الجنود ما شاء الله، حتى خلص الخبر إلى فرعون، فقال: أدخلوه عليَّ، فأدخلوه، فقال فرعون: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾[الشعراء:١٨] فقال له: يا فرعون آمنْ بربِّ العالمين، فقال: خذوه، فبادرهم موسى ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ ، فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾[الشعراء: ٣٢] فحملت على الناس فانهزموا، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً ـ هذا لم يصحّ ـ قَتَلَ بعضهم بعضاً، وأدخل الثعبان أحد شدقيه تحت سرير فرعون والآخر فوقه فسلح فرعون في ثيابه، وقام فرعون منهزماً فدخل البيت، فقال لموسى:

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٨٤.

اجعل بيننا وبينك أجلاً ننظر فيه، فقال له موسى: لم أومر بذلك، وإنما أُمرت بمناجزتك، فإن أنت لم تخرج إليَّ دخلت إليك، فأوحى الله إليه: اجعل بينك وبينه أجلاً، واجعل ذلك إليه، فقال فرعون: أجِّلني أربعين يوماً، ففعل، وكان فرعون لا يأتي الخلاء إلا في كلِّ أربعين يوماً مرة، فاختلف ذلك اليوم أربعين مرة، وخرج موسى فلما مرَّ بالأُسْدِ بَصبصت بأذنابها، وسارت مع موسى تشيّعه ولا تهيجه. انتهت رواية وهب التي رواها عبد الله بن أحمد في «كتاب الزهد» عن أبيه[(١)].

وقال مجاهد: لما وصلا إلى باب القصر قالا للبواب: ادخل عليه وقلْ له إنَّا رسول رب العالمين، فلما دخل عليه قال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾[الشعراء: ١٩] فقال له: يا فرعون آمن بربِّ العالمين، ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] قال: رب السماوات والأرض وموسى وهارون.

فإن قيل: فما هذا جوابه وقد كان ينبغي أن يذكر اسم الله وصفته. قلت: إنما عدل عن ذكر الاسم والصفة لأن فرعون سأله عن ماهية مَنْ لا ماهية له بقوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فأجابه بهذا الجواب، لأن فرعون لم يكن يعرف الاسم ولا الصفة.

وقال وهب والحسن: أوحى الله إلى هارون، فبشَّره برسالته ونبوة موسى، وأنه قد جعله وزيره ورسوله معه إلى فرعون، فإذا كان يوم الجمعة غرة ذي الحجة، فاخرجْ إلى جانب النيل قبل طلوع الشمس لتلقى أخاك، ففعل. ودخلا على فرعون، وجرى ما جرى.

وقال وهب: إن موسى لما دخل على فرعون قال له: آمن حتى أسأل الله أن يردَّ عليك شبابك، فأخبر هامانَ بذلك، فقال له: اصبغ بالسواد، فصبغ، وهو أول من فعل ذلك. ثم قال فرعون لموسى: قد رددتُ عليَّ شبابي، فقال له: ميعادك ثلاثة أيام، فلما انقضت الثلاث نَصَل خضابه، قال: فكل خضاب يَنْصُلُ بعد ثلاثة أيام.

قال علماء السير: لما دخل موسى على فرعون قال له: إن كنت جئت بآية فأت بها ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٢، ٣٣] وأخرجها ولها شعاع مثل شعاع الشمس.

---

(١) «كتاب الزهد» ص ٨٣-٨٤، والتبصرة ١/ ٢١٩-٢٢٣.

وقال مقاتل: قال له فرعون: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾[طه: ٥١] يعني قوم نوح وعاد وثمود، الآية؟ وإنما سأله عنها لأنه إنْ كان رسولاً علم حالها، فقال موسى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ لأن التوراة لم تكن أنزلت عليه بعد، لأنها إنما أنزلت عليه بعد غرق فرعون وخروجه من مصر، فردَّ العلم إلى الله تعالى ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[طه: ٥٢] فيحتاج إلى التذكرة.

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أي: أجلاً وميقاتاً ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ﴾ أي: لا نتجاوزه ﴿نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾[طه: ٥٧، ٥٨] أي: مستوياً ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ واختلفوا فيه: قال ابن عباس: يوم الزينة يوم عاشوراء، كانوا يتزيَّنون فيه. وقال مقاتل: يوم عيدهم. وقال ابن المسيّب: يوم النيروز[1] ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾[طه: ٥٩] أي: ضحوة، ليكون أبلغ في الحجة، وأبعد من الزينة في الليل ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ [طه: ٦٠] أي: حيَلَه وسَحَرَتَه في ذلك اليوم لموعد موسى.

فصل في اجتماع السحرة

واختلفوا في عددهم، قال ابن عباس: كانوا سبعين ألفاً، ما بين ساحر وكاهن، ورؤساؤهم سبعون ورؤساء السبعين سبعة: ساتور وعاز وحطحط وشمعون ويوحنا ويثرون. وقيل: كانوا أربع مئة ألف، والأول أصح.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: تختلقوا ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ أي: يستأصلكم ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾[طه: ٦١] أي: كذب ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾[طه: ٦٢] أي: الحديث. وكان مع كل واحد منهم عصا وحبل ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ أي: أرض مصر ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾[طه: ٦٣] أي: يصرفا وجوه الناس إليهما. والطريقة: السنَّة ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ﴾ أي: اعزموا على إظهار سحركم ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ أي: صفوفاً ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ

---

(١) تفسير الثعلبي ٦/ ٢٤٧، ٢٤٩، وعرائس المجالس ١٨٨، وزاد المسير ٥/ ٢٩٢، ٢٩٤-٢٩٥، وما سلف من تفسير للآيات منها وما سيرد كذلك، ولن أشير إليه.

ٱسْتَعْلَىٰ﴾[طه: ٦٤] أي: فاز وغلب ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥] ومعناه: إما أن تلقي عصاك، وإما أن نلقي نحن عصيّنا. ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦] أي: تمشي، وكانوا قد لطخوا عصيَّهم وحبالهم بالزئبق، فلما أصابها حرّ الشمس ارتهشت وتحركت، فظنَّ موسى أنها تريده، وامتلأ الوادي بالحيات كأمثال الجبال، يركب بعضها بعضاً ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾[طه: ٦٧] أي: أضمر، فقيل له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٨] أي: الغالب ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩] أي: في أي مكان من الأرض، فألقاها، فابتلعت جميع ما في الوادي، حتى لم يبق فيه شيء، وأخذها موسى فإذا هي عصاه ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ﴾ العالمين، رب ﴿ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ﴾ فرعون: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ أي: به ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ يعني اليد اليمنى والرجل اليسرى ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾[طه: ٧١] أي: أنا أو ربّ موسى ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: [التي] شاهدناها، والدرجات العلى ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ﴾ وهذا قسم ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ﴾ أي: فاحكم بما أنتم صانع من القتل والقطع والصلب ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧٢] أي: ليس لك علينا في الآخرة سلطان ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[طه: ٧٣].

وقال مقاتل: إنما قالوا هذا لأن فرعون أمرهم أن يتعلموا السحر خوفاً من موسى، فقالوا: أرنا كيف ينام موسى، فأراهم، فإذا عصاه قائمة تحرسه، فقالوا: ليس هذا بساحر، فقال: لابدَّ أن تتعلموا، فأكرههم عليه.

وقال السدي: لما شاهدوا العصا رأوا أمراً فهالهم كما كان ما بين شعبتيها ثمانين ذراعاً.

وقال ابن عباس: جاؤوا أول النهار سحرة كفرة، وصاروا في آخره شهداء بررة.

وقد فرّقوا بين الساحر والسحّار، فالساحر من يكون سحره في وقت دون وقت، والسحّار من يديم السحر.

وقال مجاهد: كانوا يتعلمون السحر بقرية من أرض مصر يقال لها: الفَرَما، كما يتعلم الصبيان الكتابة في الكُتّاب، وأن الذين يعلمونهم رجلان من أهل نِينَوى.

وقال الكلبي: لما قالت السحَرة لفرعون ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١] أي: جُعْلاً ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٢] أي: عندي في المنزلة، وأول من يدخل وآخر من يخرج، قال: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أي: أفزعوهم ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[الأعراف: ١١٦] وهو ما ذكرنا ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ﴾ لما تلقفت العصا ما جاؤوا به ﴿وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٩] أي: ذليلين مقهورين ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٠] حيث تيقَّنوا أنه أمرٌ سماويٌّ وليس بسحر، فحينئذٍ قالوا: ﴿لَا ضَيْرَ﴾[الشعراء: ٥٠] أي: لا ضرر.

واختلفوا في الذين آمنوا من السحرة: قال مجاهد: إنما آمن رؤساؤهم السبعة، وقال قوم: إنما آمن الكلُّ، وهو الأظهر، لأن الله ذكرهم بالألف واللام، وهما للاستغراق.

وقال مقاتل: ولما غُلِبَتِ السحرة قال الملأ ـ وهم الأشراف ـ لفرعون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾[الأعراف: ١٢٧] فلا يَعْبُدك ولا يَعْبُدُها. قال ابن عباس: كان لفرعون بقرةٌ يعبدها. وقال الحسن: كان مع ادِّعائه الربوبية يعبد تيساً، وقيل: صنماً.

فصل في تعذيبه لبني إسرائيل

قال فرعون: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ للخدمة ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾[الأعراف: ١٢٧] أي: غالبون. وبلغ موسى، فقال لقومه: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ يعني أرض مصر ﴿يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[الأعراف: ١٢٨] بالنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة.

وقال مجاهد: لما آمنت السحرة اتبع موسى ست مئة ألف من بني إسرائيل، فجار عليهم فرعون، فشكوا إلى موسى فقالوا: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ بقتل الأبناء، واستخدام النساء ﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾[الأعراف: ١٢٩] بخنق فرعون علينا، وإعادة

القتل والاتعاب في الأعمال المشقة، لأن أهل القوة منهم كانوا ينحتون السواري من الجبال فقرحتْ أعناقهم، ودَبِرَت[1] ظهورُهم، وطائفة ينقلون الخشب، وآخرون يبنون، وقوم يطبخون الآجرَّ، وآخرون يعملون الحديد، ووضع على الضَّعَفَةِ الضرائب، يؤدُّون كلَّ يوم ضريبة، فمن غربت عليه الشمس قبل أن يؤدي ضريبته، غُلَّت يمينه إلى عنقه شهراً. وأما النساء فيغزلن الكَتَّان وينسجنه، ويخدمن القبط. وموسى يقول لهم: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾[الأعراف: ١٢٨] ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ١٢٩] قال مجاهد: فحقق الله ظن موسى فيهم.

فصل في الآيات التي أرسلت على قوم فرعون

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ الآية[الأعراف: ١٣٠].

قال ابن عباس: بالجدب والقحط سنة بعد سنة. يقال: أَسنتَ القوم: إذا أجدبوا.

وقال سعيد بن جبير: مَلَك فرعون أربع مئة سنة، ما جاع ولا حُمَّ ولا صُدِعَ، ولو ذاق شيئاً من ذلك لما ادّعى الربوبية.

قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

واختلفوا في **الطوفان** على أقوال:

أحدها: أنه المطر أغرق كلَّ شيء لهم، قاله ابن عباس.

الثاني: أنه الموت الجارف، قال وهب: الطوفان الطاعون بلغة أهل اليمن، سلَّطه على أبكار آل فرعون والمواشي، فأفنى الكلَّ.

والثالث: الجُدَريُّ، وهم أول من عُذِّب به، وبقي بقاياه في الأرض إلى يوم القيامة.

قال أبو قلابة: وأما **الجراد**، فأكل كلَّ شيء لهم، قاله ابن عباس.

والثاني: أنه الموت الجارف، قاله وهب.

واختلفوا في **القمَّل**: فقال ابن عباس: إنه السوس الذي يخرج من الحنطة، وقال السُّدي: صغار الجراد، وقال مجاهد: هو الدَّبى[2] كان يأكل لحومهم وطعامهم،

---

(١) في (ب): وثرت، ودَبِرَت: أي ظهرت فيها الدَّبَرَة، وهي قُرحةٌ تخرج في ظهر الدابة والبعير. تاج العروس: (دبر).

(٢) الدَّبى: أصغر الجراد والنمل.

وقال ابن يزيد: هو البراغيث. وقال الجوهري: هو دويبة من جنس القِرْدان يركب البعير عند الهزال، وقيل: هو الحَلَم[١] بحاء مهملة.

وأما **الضفادِع** فواحدها ضفدع، أقبلت كقطع الليل المظلم، فملأت البيوت والأواني، وأكلت الأطعمة، وملأت الحِبابَ والجِرار.

وأما الدم فكان الإسرائيلي والقِبْطي يأتيان إلى جانب النيل فيشرب الإسرائيلي ماءً والقِبْطي دماً.

قال ابن عباس: دعا عليهم موسى فأصابهم ذلك، فكادوا أن يهلكوا بالطوفان، ملأ بيوت القِبط حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم، ومن قعد منهم غرق، ولم يدخل منازل بني إسرائيل منه قطرة، فقالوا: يا موسى ادعُ لنا ربَّك أن يكشفَ عنا هذا المطر، فقد منعنا من الحرث والزرع، ونحن نرسل معك بني إسرائيل، فسأل ربَّه فرفع عنهم الطوفان، وكان قد عمَّهم من السبت إلى السبت، فلم يرسلوا معه بني إسرائيل، فأرسل الله عليهم الجراد، فأكل جميع مالِهم، حتى مسامير الأبواب والحديد، فضجُّوا وقالوا: يا موسى ادع لنا ربك، فدعا لهم، فرفع الله عنهم الجراد، فلم يؤمنوا، فأمر الله موسى فخرج إلى قرية بظاهر مصر يقال لها: عَيْن شَمس، وعندها كثيب أعفر، فضربه بعصاه، فسال قملاً يلحس الزروع وغيرها، وكان يدخل بين جلد أحدهم وثوبه فيكاد يُهلكه، واختلط بطعامهم، ولصق بأجفان عيونهم وحواجبهم، فاستغاثوا: يا موسى ادع لنا ربَّك أن يكشفه عنا ونحن نرسل معك بني إسرائيل، فسأل الله فكشف عنهم، فعادوا إلى أخبث ما كانوا عليه، فدعا عليهم، فأرسل الله عليهم الضَّفادع فدخلت في أفواههم وثيابهم وقدور طعامهم وأوانيهم، فاستغاثوا وقالوا: نحن نتوب، فسأل الله أن يرفعها عنهم، فرفعها، فعادوا، فدعا عليهم، فأرسل الله عليهم الدم، فصار النيل دماً فاختلط بأطعمتهم وشرابهم، حتى إن المرأة من القبط كانت تقول للمرأة من بني إسرائيل: اسقيني فقد عطشت، فتصبُّ لها من الجرة ماءً، فتقول لها اجعليه في فيك ثم مُجّيه في فيَّ فتفعل، فيصير دماً. وأقام بهم كلُّ نوع من هذا من

(١) «الصحاح» (قمل)، والحَلَم: القراد الضخم وهو ما يتعلق بالبعير فهو كالقمل للإنسان.

السبت إلى السبت، فأقاموا على هذا. وكان فرعون يصيبه من ذلك ما يصيب القبط، فقالوا: يا موسى، قد وضح لنا البرهان، فقد تبنا، فاسأل ربك فينا، فسأله، فرفع عنهم ذلك كله، فنقضوا العهود، وعادوا شرَّ ما كانوا عليه.

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾[الإسراء: ١٠١] وهذه خمس، فأين الباقيات؟ قلنا: العصا، واليد البيضاء، والبحر، والطمس على الأموال. وذكر عبد الوهاب بن النُّوبي وقال: كانت آياته عشرين آية، ذكر التسع التي ذكرنا وزاد: ولم يحترق في التنور، ولا غرق في البحر، ثم السنون، ثم المنّ والسلوى في التيه، وتظليل الغمام، وفلق البحر، وإحياء عاميل في قصة البقرة، وانفجار الماء له من الحجر، وتكليم الله له، والعمود الذي كان يَقِد بين يديه في التيه ليلاً.

وقال الزهري: دخلت على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقال لي: يا ابنَ شهاب أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾[الإسراء: ١٠١] قال: فقلت: الطوفان، والجراد، والقُمّل، والضَّفادع، والدم، ويده، والبحر، والطمسة، وعصاه، فقال: أحسنت، هكذا يكون العلم، ثم قال: يا غلام آتني بالخريطة، فأتى بخريطة مختومة ففكَّها ونثر ما فيها، فإذا دراهم ودنانير وتمر وجوز وعدس، فقال: كُلْ يا ابن شهاب، فأهويت إليه فإذا هو حجارة، فقلت: ما هذا يا أمير المؤمنين، فقال: أصابه عبد العزيز بن مروان بمصر إذ كان والياً عليها، وهو مما طمس الله على أموالهم(١).

وقال إسحاق بن بشر: أخبرني المضارب بن عبد الله الشامي، قال: أخبرني من رأى بمصر نخلةً مصروعة، وإنها لحجر، ولقد رأيت ناساً قياماً وقعوداً في أعمالهم لو رأيتهم ما شككت فيهم قبل أن تدنو منهم أنهم ناس، وإنهم لحجارة، ولقد رأيت الرجلَ يحرثُ بين ثورين، وإنه وثوراه حجارة(٢).

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٩٧.
(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ١٩٨.

فصل في قصة آسية بنت مزاحم

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أَفضَلُ نساءِ أهلِها خديجةُ بنتُ خُوَيلدٍ، وفاطمةُ بنتُ محمَّدٍ، ومريمُ بنتُ عِمرَان، وآسيَةُ بنتُ مُزاحمٍ»(١).

وروى عكرمة عن ابن عباس، موقوفاً عليه قال: كانت آسيَةُ من بني إسرائيلَ، قد آمنتْ بموسى سرّاً من فرعون، فلما علم بذلك ضرب لها أوتاداً في يديها ورجليها، وأمر بأن تلقى على صدرها صخرة كأكبر ما يكون، قال: فإن رجعت عن دينها فخلُّوا سبيلها، فكشف الله عن بصرها، فرأت قصرها في الجنة، فقالت: اصنعوا ما بدا لكم، فقد رأيت قصري ومنزلي في الجنة، فذلك قولها: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[التحريم: ١١] فاستجاب الله دعاءها، وأراها قصورها ومنازلها في الجنة قبل أن تفارق الدنيا. وكانوا إذا تفرَّقوا عنها أطلقها الملائكة، فماتت على ذلك.

فصل في ماشطة ابنة فرعون

حدثنا غير واحد، عن عبد الرحمن بن محمد القزَّاز، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أُسْرِيَ بي مررتُ برائحة طيبة، فقلت: يا جبريل ما هذه الريح؟ قال: هذه ريح ماشطة ابنة فرعون، كانت تمشطها فوقع المشط من يدها فقالت: بسم الله، فقالت لها ابنة فرعون: أبي؟ قالت: لا، بل ربي وربّ أَبيك الله، فأخبرت فرعون، فدعاها فقال: مَنْ ربك؟ فقالت: ربي وربّك الله الذي في السماء، فأمر ببقرة من نُحاس فأحميت، ودعا بها وبولدها، فقالت له: إن لي إليك لحاجة، قال: وما هي؟ قالت: تجمع عظامي وعظام ولدي، فتدفنهما جميعاً. فقال: إن لك من الحق علينا ما تستوجبين به ذلك. وكان لها أولاد فجمعهم، ثم ألقى واحداً بعد واحد في البقرة وهي تغلي، حتى إذا كان آخر ولدها، وهو طفل رضيع، أنطقه الله تعالى: يا أماه اصبري، فإنك على الحق،

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٦٦٨).

فألقاها مع أولادها»(١).

فصل في قصة مؤمن آل فرعون

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾[غافر: ٢٨-٣٣] الآيات.

واختلفوا في اسمه، قال ابن عباس: خربيل، أو خربال، أو خربيال. وقال مقاتل: سمعان، أو شمعان، أو شمعون، وقيل: حبيب. وقال مقاتل: خيرك، وقيل: حزقيل، وكان ابن عم فرعون، وقيل: من آله.

قال مجاهد: وهو الذي قال الله فيه: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القصص: ٢٠] وجادل عن موسى فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ وكان قد أوقع الله في قلبه الإسلام، وكتم إيمانه خوفاً من فرعون. وقوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ استفهام إنكار ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ لا يضركم ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾[غافر: ٢٨] من العذاب، والمراد بالبعض ها هنا الكلُّ(٢).

فصل في قصة فرعون مع النيل

روى وهب بن منبه، عن كعب الأحبار قال: أَمسَك النيل عن الجريان في بعض السنين، فقالت القِبط لفرعون: إن كنتَ ربّاً كما تزعمُ فأَجْرِهِ. فركب في جنوده، ثم انفرد عنهم ونزل عن فرسه، ولبس ثيابَ المساكين، وسجد وتضرع وقال: إلهي أنت تعلم أني أعلمُ أنك إله الخلق، لا إله سواك، ولكن كتبت عليَّ الشقاء، وطردتني عن بابك، ولا حيلة لي. فأَجرى الله له النيل.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٨٢١)، وقوله: «فأمر ببقرة من نحاس»، قال الحافظ أبو موسى: الذي يقع لي في معناه أنه لا يريد شيئاً مصنوعاً على صورة البقرة، ولكنه ربما كانت قدراً كبيرة واسعة فسماها بقرة، مأخوذاً من التبقر: التوسع أو كان شيئاً يسع بقرة تامة بتوابلها فسميت بذلك «النهاية» ١/ ١٤٥.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ١٨٩، والمنتظم ١/ ٣٤٥، وتفسير الطبري ٢٠/ ٣١١.

فصل في بناء الصرح

روى عكرمة عن ابن عباس، قال: لما تضايقت بفرعون الحيل قال: ﴿يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ أي: صرحاً عالياً ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ۝٣٦ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ أي: طرقها ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا﴾[غافر: ٣٦ـ٣٧] فيما يقول أن له ربّاً غيري ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾[القصص: ٣٨] أي: اطبخ الآجرَّ ـ وفرعونُ أول من طبخ الآجرَّ وبنى به. وقيل: نمرود لما بنى الصرح ـ فجمع هامان العمال والفَعَلة حتى بلغوا خمسين ألفاً من البنَّائين، سوى الأتباع. ومن يعمل الجصَّ وينحت الخشب، فرفعوه ارتفاعاً عظيماً. قال مجاهد: لم يبلغ بنيانُ أحدٍ منذ خلق الله السماوات والأرض مثله.

ولما فرغ صعد عليه فرعون، فرمى بنشابة نحو السماء فعادت وهي ملطخة بالدم، فقال: قتلتُ إله موسى ـ وقد تقدم جواب مثل هذه الأشياء في صرح نمرود ـ فبعث الله جبريل عليه السلام، فضربه بجناحه، فقطعه ثلاث قطع، وقعت قطعةٌ منه على عسكر فرعون، قتلت منهم مئة ألف ووقعت قطعة منه في النيل فسدَّته، ووقعت الأخرى على العمال والبنَّائين فأهلكتهم(١).

فصل في غرق فرعون

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢] أي: يتبعكم فرعون وقومه. وقال مقاتل: لما وقع الإياس من إيمان فرعون، وأباد بني إسرائيل وأفناهم، شكا موسى إلى الله تعالى، فأوحى الله تعالى إليه: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾ أي: سِرْ بهم أوَّلَ الليل من مصر، فأمر موسى بني إسرائيل أن يستعيروا حلي القبط بعلَّةِ عرس لهم ففعلوا.

روى الثعلبي عن ابن جريج في هذه الآية قال: أوحى الله إلى موسى: أن اجمع بين كل أربعة من أهل بيت في بيت واحد، ثم اذبحوا أولاد الضأن، ثم اضربوا بدمائها على أبوابكم، فإني سآمر الملائكة فلا تدخل بيتاً على بابه دم، وآمرها فتقتل أبكارَ آل

---

(١) عرائس المجالس ١٩١.

obeikandi.com

فرعون، ثم اخبزوا فطيراً، فإنه أسوغ لكم، ثم أَسْرِ بعبادي حتى تنتهي إلى البحر، فقف هناك، حتى يأتيك أمري، ففعل.

فلما أصبحوا قال فرعون: هذا عمل موسى وقومه، أخذوا أموالنا، وقتلوا أبكارنا، ثم أرسل ﴿فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾[الشعراء: ٥٣] فلما اجتمع الناس والسحرة، قال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤﴾[الشعراء: ٥٤] والشرذمة بقية القليل. قال ابن مسعود: وكانت هذه الشرذمة ست مئة ألف وسبعين ألفاً[1].

وقال الجوهري: الشرذمة الطائفة من الناس، والقطعة من الشيء[2].

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥﴾ [الشعراء: ٥٥] أي: أعداء، لمخالفتهم ديننا، وقتلهم أبكارنا، وأخذهم أموالنا التي استعاروها، وخروجهم من أرضنا بغير إذن منا «وإنا لجميع حادرون» [الشعراء: ٥٦] قال الفراء: يعني عظاماً من كثرة الأسلحة، ومنه قيل للعين العظيمة: حَدْرَة[3]. ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧﴾ [الشعراء: ٥٧] ﴿وَكُنُوزٍ﴾ قال مجاهد: سماها كنوزاً لأنها لم تنفق في سبيل الله وطاعته ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٥٨] أي مجلس حسن ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما وصفنا ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠] أي: لحقوهم وقت إشراق الشمس.

وروى عكرمة عن ابن عباس، قال: خرج موسى في ست مئة ألف، وعشرين ألفاً، لا يَعُدُّون ابن العشرين لصغره، ولا ابن السبعين لكبره. وأمر الله موسى أن يأمر قومه أن يوقدوا المصابيح في بيوتهم إلى الصبح، وأخرج الله كل ولد زنا في القبط من بني إسرائيل إليهم، وأخرج كل ولد زنا في بني إسرائيل من القبط إلى القبط[4]، كل واحد منهم إلى أبيه. ودعا موسى عليهم حين خرج، فقال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨] فصارت دراهمهم ودنانيرهم وحبوبهم حجارة، حتى العدس والقمح والحمص والجوز وغير ذلك. ثم ألقى على القبط الموت، فاشتغلوا بدفن موتاهم عن

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٩٨.

(٢) «الصحاح»: (شرذم).

(٣) تفسير الثعلبي ٧/ ١٦٥، وقراءة حادرون بالدال شاذة، قرأ بها ابن أبي عمار ومحمد بن السميفع وسميط بن عجلان، انظر المحتسب ٢/ ١٢٨، وشواذ ابن خالويه ١٠٦.

(٤) كذا في (ب) و«الطبري» ١/ ٤١٤، وفي المطبوع «كل ولد رِبِّيّ».

طلب بني إسرائيل. وأُخبر فرعون بخروجهم آخر الليل فقال: لا يتبعهم أحد حتى يصيح الديك، فما صاح تلك الليلة ديك. ثم ضرب الله على بني إسرائيل الطريقَ في الليل، فلم يدروا كيف يذهبون، فقال موسى: ما منعنا إلا تابوت يوسف عليه السلام لندفنه في البيت المقدس عند آبائه الأنبياء، وما أُتينا إلا من قبله.

حدثنا أبو اليمن زيد بن الحسن بإسناده عن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه، قال: مرَّ رسول الله ﷺ بأعرابي فأكرمه، فقال له: «تَعَاهَدْنَا» قال: فأتاه، فقال: «اسأل حاجتك» فقال: ناقة برحلها، وأجير يحلبها، فقال له رسول الله ﷺ: «أَعَجَزتَ أنْ تَكُونَ مِثلَ عَجُوزِ بني إسرائيلَ؟» فقال له أصحابه: يا رسول الله، وما عجوزُ بني إسرائيل؟ فقال: «إنَّ مُوسى لما أرادَ السَّيْر ببني إسرائيلَ ضلَّ عن الطَّريقِ، فقال لعُلَماء بني إسرائيلَ: ما هذا؟ قالوا: نحنُ نُخبرُك: إنَّ يوسُفَ عليه السلام لما حضَرهُ الموتُ أخَذَ مَواثيقَ بني إسرائيلَ أنْ لا يخرجُوا من مِصر حتى يُخرِجُوا عِظامَه معَهُم، فقالَ موسى: أيُّكم يَدْرِي أينَ قبرُه؟ قالوا: ما يَعلَمُ ذلكَ إلا عجوزٌ من بني إسرائيلَ، فأرسَلَ إليها فجَاءَت، فسَألَها فقالت: واللهِ لا أخبِرُك حتى تُعطِيني حُكْمِي، قالَ: وما حُكْمُك؟ قالت: تأخذُني مَعَك وأكُون رفيقَتَك في الجنَّة، قال: نعم. وفي رواية: «فقَامَ مُوسى مِن بين بني إسرائيلَ يقولُ: أنشُدُ الله مَن عَرفَ موضعَ قَبرِ يُوسُف، فلَم يسمع صوتَه أحدٌ إلا العجوز، وقالَت له: أريدُ مِنك أنْ تَحمِلَني مَعك، فحمَلَها، قالَت: وفي الآخرةِ لا تدخلْ غرفةً من غرف الجنة إلا وأنا مَعك، فقال: نعم. وسَأَل اللهَ موسى تأخيرَ طلوعِ الفَجرِ لهذا السبب، فأتَتْ إلى مُسْتَنْقَع ماءٍ، فقالَت: انضُبوا هذا الماء فنَضَبُوه، فقالت: احفرُوا ها هنا، فحفرُوا فبدَا تابوتٌ مِن مَرْمَرٍ مدْفُون بأرضِ النِّيل، كانوا يتبرَّكون به. فلما أقلُّوه بانَ لهم الطريقُ مثل ضوءِ النَّهار[١].

وقال ابن الكلبي: كانت هذه العجوز من ولد إسحاق، وقيل: من ولد يعقوب، عاشت أربع مئة سنة، وبها يضرب المثل فيقال: أكبر من عجوز بني إسرائيل، وسنذكرها في الأمثال.

---

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٧٢٣)، والثعلبي في عرائسه ١٩٩، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٧١، وابن الجوزي في المنتظم ١/ ٣٤٧، قال ابن كثير في تفسيره للآية (٥٢) من سورة الشعراء: هذا حديث غريب جداً، والأقرب أنه موقوف والله أعلم.

وقال قتادة: كان يوسف مدفوناً عند مدينة مَنْف، وهناك مسجده، قال: ولما حمله موسى معه، دفنه خارجاً من المغارة التي فيها إبراهيم، وإنما لم يدفن معهم في المغارة لأنه تدنَّس بالدنيا وآباؤه لم يتدنسوا منها بشيء.

وقال عكرمة: كان هارون في المقدمة وموسى في الساقة. وخرج فرعون في طلبهم في ألف ألف من القبط، وسبع مئة ألف حصان، منها مئة ألف حصان دهم، وهامان على مقدمته في ست مئة ألف، ولم يكن في خيل فرعون أنثى.

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي تقابلا بحيث يرى كلُّ فريق منهما صاحبه ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾[الشعراء: ٦١] هذا البحر بين أيدينا والعدوّ مِنْ خلفنا، فقال موسى: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾[الشعراء: ٦٢] وكان يوشع بن نون بين يديه، وقيل: مؤمن من آل فرعون، فقال له: يا نبي الله أين أُمِرْتَ أن تنزل؟ فيقول: أمامك، فيقول: وهل أمامي إلا البحر؟ فيقول: والله ما كَذَبْتُ ولا كُذِبْتُ. فوصل موسى إلى بحر القُلْزُم ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾[الشعراء: ٦٣] وأوحى الله إلى البحر أن أطع موسى، فضربه فتوقف، فقال الله: كَنِّه، فقال: انفلقْ أبا خالد، فاضطرب البحر وانفلق وقام الماء كأمثال الجبال، وصار في البحر اثنا عشر طريقاً على عدد الأسباط، وكانوا اثني عشر سبطاً، كل سبط اثنا عشر ألفاً، وكلهم من ولد يعقوب.

وقال ابن عباس: صار بين كلِّ طريقين كالطود العظيم من الماء، فكانوا يمرُّون فيه فلا يدري هذا السبط ما حال السبطِ الآخر، فاستوحشوا وخافوا أن يكون قد غرق بنو أعمامهم، فأرسل الله على أرض البحرِ الشمسَ والريح فصارت يبساً، فذلك قوله تعالى: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ ليس فيه ماء ولا طين ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧] من البحر، وكان الماء في غاية الزيادة، وصار الماء مثل الشبابيك، فكان بعضهم يرى بعضاً ويأنس بحديث بعض.

وسئل ابن عباس عن مكان لم تطلع عليه الشمس إلا مرة واحدة، فقال: المكان الذي انفلق لبني إسرائيل[١].

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٠٠.

وقال مقاتل: ولما رأى فرعون أن البحر قد انفلق قال لقومه: خاف البحر فانفلق لأُدرِكَ عبيدي وأعدائي. ولما وصل فرعون وجنده إلى الساحل وجدوا موسى وقومه قد عبروا، فقال للقبط: قد سحر موسى البحر، فقالوا له: إن كنت إلهاً فاعبر خلفه، وكان على حصان أدهم، فهاب الحصانُ أن ينزل، فبعث الله تعالى جبريل على ماذيانة وَدِيق، يعني رَمَكَة[1]، فجاءت بين يدي الحصان، فشمها فتقدَّم، فدخل جبريل البحر وفرعون والقوم خلفه، وميكائيل خلفهم يحثهم ويقول: الحقوا أصحابكم، فلما تكامل أولهم وآخرهم، وهمَّ أولهم بالصعود، أمر الله البحر فانطبق عليهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ۞﴾[الشعراء: ٦٤] أي: قرَّبناهم إلى الهلاك وقدَّمناهم إلى البحر ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۞ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ۞﴾[الشعراء: ٦٥ ، ٦٦] يعني فرعون وقومه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي: عظة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[الشعراء: ٦٧] قال مقاتل: لم يؤمن منهم غير حزقيل وآسيّة والعجوز التي دلَّت على تابوت يوسف عليه السلام[2].

ولما انطبق البحر عليهم نادى فرعون ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[يونس: ٩٠].

حدثنا عبد الرحمن بن أبي حامد الحربي بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال جبريل: يا محمد لو رأيتني وأنا أدسُّ في فيه حمأة البحر مخافة أن يقول لا إله إلا الله فتدركه الرحمة. أخرجه أحمد فقال: حدثنا سليمان بن حرب بإسناده عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قالَ فِرعون: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[يونس: ٩٠]، قال جبريل: لو رَأيتَني وقد أَخَذتُ مِن حَالِ البَحرِ فدَسَستُهُ في فِيه مَخافةَ أنْ تَنالَه الرَّحْمَة»[3].

وقال مقاتل: فقال له جبريل: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ [يونس: ٩١].

وقال مقاتل: قال جبريل: ما أبغضت أحداً مثل ما أبغضت فرعون وإبليس، ذاك

(١) هي الفرس الأنثى المشتهية للفحل.
(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٠١.
(٣) أحمد في «مسنده» (٢٨٢٠)، وإسناده ضعيف، والأصح وقفه. قاله الشيخ شعيب حفظه الله.

قال: ﴿إِلَٰهَ إِلَّا وَمَا﴾[النازعات: ٢٤]، وإبليس قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[الأعراف: ١٢] قال: ولما خرج بنو إسرائيل وأغرق الله فرعون، قال أناس: إن فرعون لم يغرق، فقذفه البحر على نجوة منه، وهي المكان المرتفع، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾[يونس: ٩٢] فلما ارتفع على النجوة قالوا: لم يكن إلهاً، ولو لم يرتفع لقالوا: إنه إله. قال الحسن: فمن هناك أن الغريق يقف على رأس الماء.

وذكر مقاتل في «المبتدأ» له وقال: كان جبريل قد وقف لفرعون بمصر في زيّ فقير ومعه رقعة، فاستغاث إليه فقال: ما الذي بك؟ فقال: اشتريت عبداً وخوَّلته، وكان صغيراً فربيته وأحسنتُ تربيته، وحكَّمتُهُ في رزقي ومالي، وهو الآن يأنف أن يعترف لي بالعبودية، وقد عصاني وتمرَّد عليَّ وجحد نعمتي، فقال فرعون: ولا يستحيي منك! فقال: لا، هو خبيث، فما حكمك فيه أيها الملك؟ فقال: تأخذ بيديه ورجليه وتلقيه في بحر القلْزُم، فقال: اكتبْ لي خطَّك بهذا، فكتب له على رأس الورقة، فلما كان يوم البحر جاءه جبريل في صورة ذاك الفقير ومعه القصة فقال له: خذ هذه القصة، فظنه بعضَ أصحابه، فقال: ليس هذا وقتَهُ، فقال له جبريل: بلى يا خبيث، أنسيتَ يوم كذا وكذا؟ ففهم المقصود. قال ابن عباس: فذلك قوله تعالى: ﴿مِّنْهُ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾[البقرة: ٥٠] الآية، وانقضت أيام فرعون.

وقال قتادة: ملك مصر من أول العالم إلى ولادة المسيح اثنان وثلاثون فرعوناً، وكلُّ مَن ملكها يسمى فرعون، كما أن قيصر ملك الروم، وكسرى ملك الفرس. وقد ملكها جماعة من الروم واليونان والعمالقة وغيرهم، وسنذكرهم.(١)

فصل في تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر

قد ذكرنا أن يعقوب دخل إلى مصر وولده، وهم اثنان وسبعون إنساناً ما بين ذكر وأنثى، وخرجوا منها مع موسى وهم ست مئة ألف مقاتل سوى الهَرْمَى والزمنى، فكان المجموع من الذرية ألف ألف ومئتي ألف.

(١) وقع في المطبوع بعد هذا ما نصه: فإن قيل: فلم أرسله إلى فرعون بعصا قلنا: لأنه كان حماراً، لأنه جحد نعم الله عليه. اهـ. وهي زيادة وضعها الدكتور إحسان عباس بين معقوفين، وحقها أن تذكر أول قصة موسى عليه السلام.

وقال الكلبي: لما أهلك الله فرعون عاد موسى إلى مصر فأقام بها يسيراً ثم أوحى الله إليه: ارجعْ إلى مقرِّ الأنبياء وهو الشام، فإن مصر ليست بأرض الأنبياء، اذهب إلى أرض فلسطين فإنها ميراثكم من آبائكم وهي دار مُلْككم فهاجرَ إلى الشام.

وقال وهب: من هبوط آدم من الجنة إلى خروج بني إسرائيل من مصر ثلاثة آلاف سنة وثمان مئة وأربعون سنة. ومن مولد الخليل إلى خروج بني إسرائيل من مصر ألف وخمس مئة وخمسون سنةً. ومن وفاة يوسف إلى خروج بني إسرائيل من مصر أربع مئة سنة، وقيل: خمس مئة سنة.

فصل فيما جرى من الحوادث بعد خروج موسى ببني إسرائيل من مصر وقطعهم البحر

قال الله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾[يونس: ٩٠ والأعراف: ١٣٨] الآية. روى عكرمة والكلبي عن ابن عباس قال: قطع بهم موسى البحر يوم عاشوراء فلهذا عظَّموه وصاموه، وكان ذلك يوم الجمعة ﴿فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ وهي التماثيل.

واختلفوا في القوم الذين كانوا يعبدون الأصنام وهي التماثيل على أقوال:

أحدها: أنهم كانوا من لَخْمٍ وجذام من العرب، قاله قتادة.

والثاني: من الكنعانيين، قاله مقاتل.

والثالث: من العمالقة، قاله الحسن. فأمر موسى بقتلهم، فقال له قومه: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ فغضب موسى وقال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[الأعراف: ١٣٨] أي: نعمة الله عليكم، وقد شاهدتم سلطانه في نجاتكم وإهلاك عدوّكم ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي: مُهلَكٌ ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ١٣٩] أي: زائل مضمحل.

حدثنا عبد الله بن أحمد المقدسي رحمه الله قال: حدثنا أبو السعادات نصر الله بن عبد الرحمن بن محمد القزاز بإسناده عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع النبي ﷺ قِبَل حنين، فمرَرنا بسدرةٍ خضراءَ عظيمةٍ يقال لها: ذات أنواط، كان الكفار يعبدونها ويعكفون عليها، فقلنا: يا رسول الله، اجعلْ لنا هذه،

فقال رسول الله ﷺ: «اللهُ أكبَرُ هَذا كَما قالَت بنو إسرائيلَ: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ والذي نَفْسِي بيَدِه لتَرْكبُنَّ سَنَنَ من كانَ قَبْلَكُم»(١).

وقد ذكرها الجوهري فقال: ذات أنواط بالنون اسم شجرة بعينها، قال: وفي الحديث أنه أبصر شجرة دَفْواءَ تسمى ذات أنواط. وكررها في المعتل أيضاً فقال: الدفواء بالمدِّ شجرة عظيمة، قال: وفي الحديث أنه أبصر شجرةً دفواء تسمى ذات أنواط، لأنه كان يناط السلاح بها وتعبد من دون الله(٢).

وقال الزهري: جاء بعض علماء اليهود إلى أمير المؤمنين عليّ عليه السلام فناظره في مسائل منها أنه قال له: أنتم ما دفنتم نبيّكم حتى اختلفتم فيه، فقال له عليّ: ويحك نحن ما اختلفنا فيه وإنما اختلفنا عنه، ولكن أنتم ما جَفَّتْ أرجلكم من ماء البحر حتى قلتم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ فأُفْحِمَ(٣).

ومنها حديث الحَجَر

وقال مقاتل: لما خرجوا من البحر وقعوا في مفازة ليس فيها ماء فأوحى الله إلى موسى ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾[الأعراف: ١٦٠] وكان حجراً خفيفاً يُقلّه إنسان.

واختلفوا في صفته على أقوال:

أحدها: أنه كان مقدارَ ذراع في ذراع. والثاني: شبر في شبر. والثالث: أنه كان كبيراً إذا ضربه انفجرت منه اثنتا عشرة عيناً.

وقال ابن عباس: وهو الذي أخبر الله عنه بقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾[البقرة: ٦٠] الآية.

فإن قيل: فقد قال الله تعالى في هذه الآية: ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾ وقال في أخرى: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ فما الفرق؟ قلنا: الانبجاس يكونُ أولاً ثم الانفجار بعده.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٣٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) «الصحاح»: (نوط) و(دفا).

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٠٢.

فقال قوم: إنه كان يضربُ أيَّ حجر كان، والأصح أنه كان حجراً بعينه لأنه عرَّفه بالألف واللام، وقد نصَّ عليه ابن عباس وابن مسعود، أما ابن عباس فإنه قال: كان حجراً خفيفاً من الرخام، وقال ابن مسعود: كان من الكذَّان يضعه في مخلاته، وكان فيه اثنتا عشرة حفرة، وكان يسقي كل يوم ست مئة ألف إنسان وزيادة.

و﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾[البقرة: ٦٠ ، والأعراف: ١٦٠] أي: فلا يقتتلون ولا يتعدَّى أحدٌ على أحد. وقال بعضهم: هو الحجر الذي وضع عليه موسى ثوبه ففرَّ وقال: آدر، وسنذكره.

ومنها إنزال التوراة

قال ابن عباس: طلبوا من موسى كتاباً يضبط نادَّهم ويردُّ شاردهم، ويبيِّن لهم فيه الحلال والحرام، فسأل الله تعالى، فأمره أن يصوم ثلاثين يوماً ثم يتمُّها أربعين. واختلفوا فيه على أقوال: أحدها: أنها ذو القعدة وعشر من ذي الحجة. وقيل: ذو الحجة وعشر من المحرم، وهو الأصح، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[الأعراف: ١٤٢] وكان التكليم يوم عاشوراء، فقال لأخيه هارون: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾[الأعراف: ١٤٢] أي: كن خليفتي، وأصلح، أصلحهم على طاعة الله وعبادته ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[الأعراف: ١٤٢] أي: العاصين.

ثم توجَّه نحو الميقات وقد صام ثلاثين يوماً، فوجد لفمه خلوفاً فأنكره وقال: كيف أناجي ربي وأنا كذا، فأخذ عود خرنوبٍ فتسوَّك به، وقيل: من لحاء الشجرة، فعاتبه الله تعالى وقال: أما علمت أن خُلوفَ فم الصائم عندي أطيبُ من ريح المسك؟ فقال: إلهي، ما قصدتُ إلا مناجاتك بفم لا رائحة له وما علمت. قال ابن عباس: قالت له الملائكة كنا نشمُّ منك رائحة المسك فأفسدته بالسواك[1].

وقال جدِّي رحمه الله: قيل لموسى[2]: أيها الصائم عن أمرنا لِمَ أفطرتَ برأيك؟ فقال: وجدتُ لفمي خلوفاً وما قصدت بفعلي خلافاً، قيل له: أما علمتَ أن خلوفَ فم

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٠٢، و«تفسير البغوي» ص ٤٨٧.
(٢) في (ب): قال الشيخ أبو الفرج رحمه الله: قيل لموسى.

الصائم عندنا أطيبُ من فأرة المسك. وقال وهب: ولما تسوَّك ذهب بعضُ الخلوف، فأمره الله أن يصوم عشرةَ أيام، ولو ذهب الكلُّ لأمره بصيام ثلاثين يوماً. والميقات: الميعاد.

وقال مقاتل: ولما أتى الميقات تطهر ولبس ثيابه، فأوحى الله إليه: يا ابن عمران، اغسلْ قلبك من حبِّ الدنيا، ولسانك من ذكرها. وقف على طورِ سَيْناءَ أربعين يوماً بلياليها فإني أريد أن أناجيك بغير تَرجُمان، ونادى منادٍ من بطنان العرش ـ أي من وسطه ـ: يا جبالَ الدنيا، إن الله يريد أن يكلِّم عليكِ عبده موسى بن عمران، فتطاولت الجبال كلها إلا طور سيناء فإنه تواضع واحتقر نفسه، فكلَّم موسى عليه.

وقال مجاهد: أول ما قال الله تعالى له: يا موسى، أتدري لِمَ اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي؟ قال: لا يارِبِّ، قال: لأنك لما كنتَ ترعى الغنم لشعيب ندَّت سخلةٌ عن أمها فوقفتَ لها وأخذتها ومسحتَ برأسها وقلت: الحقي بأُمِّك.

وقال ابن عباس: قرَّبه الله وأدناه حتى سمعَ صرير الأقلام في اللوح المحفوظ، وأنزل عليه التوراة في عشرة ألواح من الزَّبرجَد، فيها ألف سورة، في كل سورة ألف آية، فيها أمر ونهي ووعد ووعيد وحلال وحرام. وفي الحديث: «أنَّ الله كَتَبَ التَّوراةَ بيَدِه»[(١)] وهي خمسة أسفار. قال: وأنزل عليه بعد ذلك مئة صحيفة. قال: وكلَّمه خمس مئة ألف كلمة، كذا روي عن ابن عباس. وقال مجاهد: ألف كلمة.

وقال وهب: وكان في جملة كلامه له: يا موسى، إذا رأيت الفقير مقبلاً فقلْ: مرحباً بشعارِ الصالحين، وإذا رأيت الدنيا قد أقبلت فقلْ: ذنبٌ عُجِّلَتْ عقوبته. يا موسى، لن يتقرَّب إليَّ المتقرِّبون من أعمال البرِّ بمثل الرضى بقضائي، ولن تأتي بعمل أحبطَ لحسناتك من النظر إلى المحارم، وإياك أن تجود بدينك لدنياهم، أُغْلِقْ دونك أبواب رحمتي، يا موسى ادنُ من الفقراء وقرِّبْ مجالسهم منك، وإيَّاك والدنيا فإنك لن تلقاني بكبيرة أضرَّ عليك من حبِّ الدنيا والركون إليها. يا موسى، قلْ للمذنبين النادمين: أبشروا، وقلْ للمعجبين المتكبرين: اخسؤوا[(٢)].

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة ﷺ في قصة حجاج آدم وموسى عليهما السلام.
(٢) انظر «المنتظم» ١/ ٣٤٢.

وقال وهب: ولما رجع موسى من التكليم غشَّى وجهه نور عظيم فتبرقع، ولو لم يتبرقع لمات من نظر إليه، ومنذ كلَّمه الله تعالى لم يأتِ النساءَ(١).

فإن(٢) قيل: فنور النظر أعظم من نور الكلام وقد رأى نبيُّنا ﷺ ربَّه ليلةَ المعراج، ولما عاد لم يتبرقع، قلنا: موسى كان محبّاً والمحبُّ مشهور، ونبيُّنا ﷺكان محبوباً والمحبوب مستور، ولأن نبيَّنا ﷺ كان رحمة للعالمين، والرحمةُ لا تكونُ مستورةً بل عامة للخلائق أجمعين.

ومنها تذكارهم بالنعم المذكورة

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾[البقرة: ٤٧] أراد نعمي قال ابن عباس: مِن فَلْقِ البحر، وإنجائهم من فرعون، وإهلاك عدوِّهم، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم، وظلَّل عليهم الغمام في التيه يقيهم حرَّ الشمس، وجعل عليهم عموداً يضيء لهم بالليل إذا لم يكن ضوء القمر، وأنزل عليهم المنَّ والسلوى.

وقال مقاتل: شكوا إلى موسى حرَّ الشمس فأنزل الله عليهم غماماً أبيضَ رقيقاً وليس بغمام المطر بل أرق وأبرد منه، فقالوا: هذا الظلُّ قد حصل، فأين الطعام؟ فأنزل الله المنَّ والسلوى(٣).

واختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: أنه شيء كالصَّمغ يقع على الأشجار وطعمه كالشهد، قاله مجاهد.

والثاني: أنه الطَّرَنْجَبين، قاله الضحاك.

والثالث: أنه الخبز الرقاق، قاله وهب.

والرابع: أنه عسل كان يقع على الشجر من الليل، قاله السدي.

والخامس: شيء مثل الرُّبّ الغليظ، قاله عكرمة.

---

(١) انظر «المنتظم» ١/ ٣٤٢.

(٢) من هنا إلى سؤال موسى ربه الرؤية ليس في (ب).

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٦.

والسادس: أنه الزنجبيل.

وقال الزجَّاج: هو جميع ما منَّ الله به من غير تعب ولا نَصَب.

والظاهر أنه ما يعرف من هذا المنِّ الأخضر الحلو، كان ينزل على الأشجار كلَّ ليلة مثل الثلج لكلِّ إنسان منهم صاع.

فقالوا: يا موسى، قد قتلنا بحلاوته نريد اللحم، فسأل الله فأنزل السلوى(١).

واختلفوا فيه أيضاً على أقوال:

أحدها: أنه طائر يشبه السُّمانَى، قاله ابن عباس.

والثاني: طيور حمر، قاله مقاتل.

والثالث: طير أكبر من العصفور يكون بالهند، قاله عكرمة.

والرابع: أنه العسل بلغة كِنانة، قاله المُؤرِّج، واحتج بقول الشاعر(٢):

وقاسَمَها بالله حقّاً لأنتمُ ... ألذُّ من السَّلوى إذا ما نَشُورُها

والأول أصح، وعليه عامَّة المفسرين.

وذكَّرهم الله بما فجَّر لهم من المياه من الحجر، وإنزال التوراة وفيها تبيانُ كلِّ شيء من نعم كثيرة.

فإن قيل: فكيف خاطب الحاضرين بقوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ وعدَّد عليهم النعم، وإنما كان ذلك لأسلاف اليهود المخاطبين؟ قلنا: لأن هؤلاء نجوا بنجاة آبائهم وأجدادهم، ومفاخر الآباء مفاخر الأبناء.

وقال ابن عباس: كان يأخذ كلُّ واحد منهم ما يكفيه ليومه وليلته، فإذا كان يومُ الجمعة أخذ ما يكفيه يومين لأنه لم يكن ينزلُ عليهم يومَ السبت. وقيل لهم: لا تدَّخِروا فادَّخَروا ففسد وتغيَّر، فقطع الله ذلك عنهم، وهو قوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي: ما ضرونا ما عصونا ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[البقرة: ٥٧] فقطع الرزق عنهم(٣).

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٦.

(٢) هو خالد بن زهير الهذلي، والبيت في شرح ديوان الهذليين ١/ ٢١٥، وقوله: ما نشُورُها: الشور أخذ العسل وجنيه.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٧.

obeikandi.com

وقال الثعلبي: حدثنا ابن حامد وابن شعيب قالا: حدثنا مكيُّ بن عبدان بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا بَنُو إسرائيلَ لم يَخْنَز[١] الطَّعامُ ولم يَخْبُثِ اللَّحمُ، ولولا حوَّاءُ لم تَخُن أُنثَى زَوجَها»[٢].

وقال أحمد: حدثنا عبد الرزاق بإسناده عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «قِيلَ لبَني إسرائيلَ: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾[البقرة:٥٨] فبدلوا فدَخَلُوا البابَ يزحَفُونَ على أَستاهِهِم وقالوا: حبَّةٌ في شَعَرةٍ»[٣]. أخرجاه في الصحيحين.

وقال أحمد بإسناده عن أبي هريرة قال: قلنا: يا رسولَ اللهِ، أنتحدَّثُ عن بني إسرائيل؟ قال: «نعم، تَحدَّثُوا عن بني إسرائيلَ ولا حَرجَ، فإنَّكُم لا تَتحدَّثُون عنهم بِشَيءٍ إلا وقد كَانَ فِيهِم أعجبُ مِنهُ»[٤]. ومعنى لا حرج، أي: لا أُضَيِّقُ عليكم في الحديث عنهم.

فصل في سؤال موسى الرؤية

قرأت على شيخنا الإمام الموفق عبد الله بن أحمد المقدسي رحمه الله بدمشق في سنة أربع وست مئة بقاسَيون من كتابه المسمَّى بـ «التوابين» قال: حدثنا أحمد بن المبارك بن ثابت عن جده ثابت بن بندار بإسناده عن وهب بن منبِّه قال: لما سمع موسى كلام ربه استحلاه واشتاق إليه وطمع في رؤيته، قال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ فقال الله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾[الأعراف:١٤٣] وليس لبشر أن يراني، ولا يراني فيها أحد إلا ويموت، ولا يطيق أحد أن يراني، فقال موسى: يا إلهي، لأن أنظر إليك وأموت، أحبُّ إليَّ من أن أعيش ولا أراك[٥].

وقال وهب: حدثنا جويبر عن ابن عباس قال: لما رأى الله تعالى حرص موسى على الرؤية قال له: اذهب إلى ذاك الحجر الذي في رأس الجبل ـ وهو جبل بمدين يقال له: طور سيناء أو طور دبير ـ فاقعد هناك، ففعل، وأمر الله الملائكة أن تمرَّ عليه،

(١) في (ط): يختر، والمثبت من المصادر.
(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٧، والحديث في صحيح البخاري (٣٣٣٠) وصحيح مسلم (١٤٧٠).
(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٨٢٣٠) والبخاري (٣٤٠٣) ومسلم (٣٠١٥).
(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١١٠٩٢).
(٥) «التوابين» ص ٣٨ـ٣٩.

obeikandi.com

فنزلت ملائكة السبع سماوات، ولهم أصوات مرتفعة بالتسبيح والتهليل والتقديس على صور شتى، ذوو أجنحة منهم كالأسود والنمور والوحوش، وأقبل جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وحملة العرش على صورهم التي خلقهم الله عليها، وجاءت الصواعق والرعد والبرق والأهوال، ففزع موسى وكاد أن ينخلع فؤاده وجعل يبكي ويتضرَّع ويقول: يا ربِّ، ندمتُ على ما سألتُ، فهل أنت منجيَّ من مكاني؟ فناداه بعض الملائكة: يا ابن النساء الحيَّض، اصبر على ما سألت، فقليل من كثير ما رأيت، يا خاطىء، يا ابن الخاطىء، ما الذي جرَّأك على ما طلبت؟ وناداه إسرافيل: يا ابن عمران، والله لنحن رؤساء الملائكة منذ خلقنا الله لم نرفع رؤوسنا نحو العرش خوفاً وفرقاً، فما حملك أيها العبد الضعيف على الإقدام على ذلك؟ فقال موسى: أحببتُ أن أعرف من عظمة ربي ما عرفت. قال وهب: ثم أوحى الله إلى الجبل إني متجلٍّ لك، فارتعدت السماوات والأرض وجميع المخلوقات، ثم خرُّوا لله سجَّداً، ثم تجلَّى الله للجبل فـ ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾[الأعراف: ١٤٣] من نور ربِّ العزَّة، وانقلب الحجر الذي كان جالساً عليه فصار مثل القبة. ولولا ذلك لاحترق(١).

وقال ابن عباس: أظهر الله من نوره للجبل مثل رأس الإبرة فساخَ واندكَّ، وموسى ينظر إليه، حتى لصق بالأرض فذلك قوله: ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ أي: مستوياً بالأرض.

وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «وصَارَ الجبلُ لعظَمةِ اللهِ سِتَّةَ أجبُلٍ، وقَعَ ثَلاثةٌ مِنها بالمدينَةِ: أُحُد ووَرِقانُ ورَضوَى، ووقعَ بمكةَ ثلاثةٌ: ثورٌ وثَبِيرٌ وحِراءُ»(٢).

قلت: ذكر جدي رحمه الله في «الموضوعات» أحاديث من هذا الجنس، منها هذا الحديث، وقال: لا يصحُّ، في إسناده عبد العزيز بن عمران يروي المناكير(٣).

وحكى عكرمة عن ابن عباس قال: طارت منه قطعة إلى أصبهان فصارت كحلاً للعيون إلى يوم القيامة.

---

(١) «التوابين» ص ٣٩ـ٤١.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٠٤.

(٣) «الموضوعات» ١/ ١٧٣.

وحكى الحافظ أبو القاسم في «تاريخ دمشق» عن أبي الحسين الرازي أنه قال: الأطوار التي كُلِّم عليها موسى أربعة: طور سيناء، وهو بالقرب من بحر القُلْزُم، والطور الذي ببيت المقدس، والطور الذي بطبرية عند أكيال، والطور الذي بدمشق، وهو جبل كوكبا موضع الكنيسة الخربة، وكَوكَبا قبلي داريًّا(١). قلت(٢): والأصحُّ أنما خوطب على جبل الطور الذي بقرب القُلْزُم.

وقوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ﴾ أي: غُشِيَ عليه، وقال قوم: مات. والأول أصحُّ، لأنه لو مات ما عاش أبداً ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ عادت روحه إليه و﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ ـ وهذا دليل على أنه لم يمت ـ أي: نزَّهتك ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[الأعراف: ١٤٣] أنك لا تُرَى في دار الدنيا، وأن من رآك مات.

وقد روى أبو أحمد بن عدي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما تجلى ربُّه للجَبلِ أشارَ بإِصبَعهِ فمرَّ نُورٌ جَعلهُ دَكًّا»(٣) قال جدي هذا الحديث في «الموضوعات» ولا يصحُّ هذا عن رسول الله ﷺ، وهو من عمل ابن أبي العوجاء، وكان زنديقاً. وكذا حديث: «إنَّ اللهَ أخرجَ خِنصَرهُ فَضربَ بِهِ عَلى إبهامِهِ فَساخَ الجَبلُ»(٤) من عمل ابن أبي العوجاء.

قلت: وقد أخرج هذا الحديث أحمد بن حنبل في «المسند» فقال: حدثنا أبو المثنى مُعاذ بن مُعاذ العنبري، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا ثابت البناني، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾[الأعراف: ١٤٣] قال: هَكذا ـ يعني أنه أخرج طرف الخنصر ـ قال أحمد: أراناه معاذ ـ قال: فقال له حميد الطويل: ما تريد إلى هذا يا أبا محمد؟ قال: فضرب صدرَهُ ضربةً شديدة وقال: من أنت يا حُميد، أو: وما أنت يا حُميد؟ يُحدِّثُني به أنسُ بن مالك عن النبي ﷺ فتقول: ما تريدُ إليه(٥)!.

---

(١) «تاريخ دمشق» ٦١/ ١٥.

(٢) في (ب): قال المصنف رحمه الله.

(٣) ابن عدي في «الكامل» ١/ ٣٤٢. وأخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٢٥٨).

(٤) أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٢٥٩).

(٥) أحمد في «مسنده» (١٢٢٦٠).

قلت: ولم يذكر أحمد بن حنبل أنه ضعيف[١]، ولا ابن أبي العوجاء، ويكره تصحيح الحديث بأن يحمل قوله[٢].

وروى الوالبي عن ابن عباس قال: لما قال موسى: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ كشف الله تعالى الحجاب عن الجبال، وأبرز له جبل قاف وقال له: انظر، فنظر فإذا مئة ألف نبي وأربعة وعشرون ألفاً عليهم العباء محرمين ملبِّين، كل منهم يقول: ﴿أَرِنِي﴾.

وقال أبو حنيفة بن النُّوبي: رأى ثمانية عشر ألف عالم يقولون: ﴿أَرِنِي﴾.

فإن قيل: فكيف أقدم موسى على طلب الرؤية؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه لما سمع الكلام وطاب له طار قلبه شوقاً إلى المتكلم، ولما رأى التكليم يُبْدأ قبل السؤال قال لسانُ طَمَعِهِ: لا عَتْبَ عليَّ إذا سألت من ابتدأني بالتفضل.

والثاني: لأنَّ كلَّ جارحةٍ منه أحسَّتْ بحظها من الكلام، فطمعتْ عيناه في نصيبها وقال: هذه لذة الكلام فكيف لذة النظر؟

والثالث: لأن طبع المحبِّ الترقي من حال إلى حال أرفع منها، فلما حصل على الكلام طلب ما هو أعلى.

والرابع: لِيتميزَ على من تَقَدَّمه من الأنبياء فيجمع بين الكلام والنظر.

والخامس: لأنه لما ناجى الله تعالى وسوس إليه إبليس وقال: إن الذي يناجيك شيطان. ولهذا روي عن الفضيل بن عياض أنه قال: جاء إبليس وموسى يناجي ربه فوقف قريباً منه فقال له بعض الملائكة: يا ملعون، ما الذي ترجو منه في هذا الوقت؟ قال: ما رجوتُ من أبيه آدم، فقال: ﴿أَرِنِي﴾ ليزول الوسواس.

والسادس: أنه سكر من شراب الكلام، والسكران لا يفيق من خماره إلا بشربة ثانية كما قيل[٣]:

تداويت من ليلى بليلى عن الهوى

قال: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾.

---

(١) ليس من شرط المسند أن يضعف أحمد الأحاديث فيه أو يصححها، فلعله لم يضعفه فيما نقل من أقواله، أو في كتابه العلل.

(٢) كذا وردت هذه الجملة في (ط)؟! وفيها سقط، وهي ليست في (ب).

(٣) القائل هو قيس بن الملوح، وتمام البيت: «كما يتداوى شارب الخمر بالخمر»، انظر ديوانه ص ١٦٠-١٦٣.

obeikandl.com

فإن قيل: فلمَ منعه الرؤية؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ خرج جواباً لموسى، لأنه سأل ما لم يكن في الدنيا فأخبره بالمستحيل.

والثاني: أنَّ الرؤية غاية الكرامة ومنتهى المنزلة إذ ليس بعدها منزلة فلو حصلت في الدنيا لموسى لم يبقَ لها في الجنة التي هي دار الكرامة معنى، فإذا كان يوم القيامة أكرم الله بها أكرمَ عبادِه، وهو محمد ﷺ، وقد قال ﷺ: «أنا أوَّلُ مَن يَطرقُ بَابَ الجنَّة»(١) و«الجنَّةُ محرَّمةٌ على الأنبيَاءِ حتى أَدخُلَها»(٢). فكأنه يقول: لن تراني قبل محمد فلا تطمع فيما ليس لك.

وقال عبد الله بن المبارك: لما كانت الدنيا فانية، والأبصار فانية، والحق سبحانه باق، لم يحسن أن ينظر الفاني في الفاني إلى الباقي، فإذا كان يوم القيامة، خلق الله لنا داراً باقية وأبصاراً باقية فننظر بالباقي إلى الباقي في الباقي.

وقال سهل بن عبد الله: قيل له: يا موسى، بالأمس تسألني نصف رغيف وتقول: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[القصص: ٢٤] واليوم تسألني الرؤية؟ لن تراني.

وقال علي بن مهدي: لو كان سؤال موسى الرؤية مستحيلاً لما أقدم عليه مع علمه ومعرفته بالله فدل على الجواز.

وقال قوم: لما علَّق الرؤية باستقرار الجبل دل على الجواز، ولأن استقراره غير محال.

فإن قيل: فلم صار الجبل دكاً لما رآه، وقلوب المؤمنين تراه دائماً ولا تندك؟ قلنا: جعل الله الجبل نداً لموسى لأنه جماد، والقلوب بيوت الحقِّ سبحانه وتعالى، والساكن لا يخرب بيته.

فإن قيل: فقد أحاله على الجبل تعليقاً للرؤية بثبات الجبل ولم يثبت فموسى أولى. وجواب من أحيل على مليءٍ ﴿فَسَوْفَ تَرَىٰنِىۚ﴾ وقد تعلق نُفاةُ الرؤية بقوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ وقال: هي للأبد، ونحن نقول: هي للوقت دون الأبد، ألا ترى إلى قوله تعالى

(١) أخرجه مسلم (١٩٦).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٢٤٦٢) من حديث مكحول مرسلاً.

في حقِّ الكفار: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾[البقرة: ٩٥] ثم حكى عنهم أنهم يتمنونه بقولهم: ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[الزخرف: ٧٧] وقال الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران: ٩٢] وقد يدخل الجنة من لا ينفق مما يحب.

وقال أهل المعاني: لما أراد موسى الذهاب إلى الميقات جعل بين ربه وقومه واسطةً بقوله لأخيه هارون: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾[الأعراف: ١٤٢] فلما سأل الرؤية جعل الله بينه وبينها واسطة وهو الجبل، فكأنه يقول: إن لم أصلح لخلافتك في قومك دون أخيك فكذا أنت لا تصلح لرؤيتي دون استقرار الجبل.

وقال سهل بن سعد الساعدي: أظهر الله نوراً بقدر الدرهم من سبعين ألف حجاب فصار الجبل دكاً.

وقال أبو بكر الورَّاق: فَعَذُبَ إذ ذاك كلُّ ماء، وأفاق كل مجنون، وبرأ كل مريض، وزال الشوك عن الأرض، واخضرت الدنيا، وخمدت نيران المجوس، وخرَّت الأصنام سجداً.

وقال سفيان: ساخ الجبل حتى وقع في البحر، فهو يذهب معه تحت الأرض فلا يظهر إلى يوم القيامة.

ومعنى قوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾[الأعراف: ١٤٣] من الانبساط على بساط القرب. ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾[الأعراف: ١٤٤] أي: على من تقدمك من الأنبياء الذين أوحيت إليهم برسالاتي وبكلامي، لا على من يأتي بعدك وهو محمد ﷺ، فإنه شاركه في الكلام وزاد عليه بالنظر.

فصل في قول بني إسرائيل إنه آدَر

قال البخاري: حدثنا إسحاق بن نصر بإسناده عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «كانت بَنُو إسرائيلَ تَغتَسِلَ عُراةً ينظُرُ بَعضُهم إلى بَعضٍ ـ أو إلى سوءَةِ بعض ـ وكانَ مُوسى يَغتَسِلُ وحدَهُ، فقالوا: والله ما يَمنعُه أن يغتَسِلَ معنا إلا أنه آدَرُ. قال: فذهبَ مرةً يغتسِلُ فوضَعَ ثَوبَه على حَجرٍ ففرَّ الحَجرُ بِثوبِهِ فَجَمحَ مُوسى في أَثرِهِ يَقولُ: ثوبي حجرُ، ثوبي حَجرُ، حتى نَظرتْ بنو إسرائيلَ إلى سَوءتِهِ، فقالوا: واللهِ ما بمُوسى من بَأسٍ،

فقامَ الحَجرُ حتى نَظروا إليه، فأَخذ ثوبَهُ وطفِقَ بالحَجرِ ضَرباً» وقال أبو هريرة: واللهِ إن بالحجر ندباً ستة أو سبعة من ضرب موسى، فذلك قوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ﴾[الأحزاب: ٦٩] الآية. أخرجاه في الصحيحين(١).

وللبخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «إنَّ مُوسَى كان حَيياً يَستتِرُ أَلَّا يُرى مِن جِلدِه شَيء استحياءً مِن اللهِ، فآذَاهُ من آذاهُ مِن بني إسرَائيلَ وقالوا: ما يَستتِرُ هذا الستر إلا من عَيبٍ بِجلدهِ، إما بَرصٌ وإما أُدرةٌ وإما آفَةٌ. وإنَّ الله أرادَ أن يبرِّئَهُ مما قالوا، فَخلا مُوسَى يَوماً وحدَهُ ووضَعَ ثِيابَهُ على حَجرٍ، ثُم اغتَسلَ، فلمَّا فَرغَ أقبلَ إلى ثِيابهِ ليأخُذَها، وإنَّ الحجرَ عَدا بِثوبِهِ فَأخذَ مُوسى عَصاهُ وطَلَبَ الحَجرَ، وجَعلَ يقولُ: ثَوبي ثَوبي، وذكَرَهُ، حتى انتهى إلى ملأٍ من بَنِي إسرائيلَ فرأَوهُ عُرياناً أحسنَ ما خَلقَ اللهُ، وأبرأَهُ مما يقُولُونَ فيه، فَطَفِقَ ضَرباً للحَجرِ، فإنَّ فيه من أثَرِ ضَربهِ ثلاثاً أو أربَعاً أو خَمساً»، ونزلت الآية(٢).

وقال الفراء: الآدر: العظيم الخصيتين، وجمح: أسرع إسراعاً لا يرده شيء.

وقال سعيد بن جبير: الحجر الذي وضع عليه ثوبه هو الذي يحمله معه في الأسفار ويضربه فتنفجر منه العيون.

وقال مقاتل: إنما نزلت هذه الآية في قصة هارون، وسنذكره هناك.

فإن قيل: فكشف العورة حرام في غير حقِّ الأنبياء، فكيف مشى موسى وعورته بادية؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن كشف العورة حرام في شرعنا أما في شرعهم فلا، والدليل أنهم كانوا يغتسلون عراة، وموسى يراهم ولا ينكر عليهم، ولو كان حراماً لأنكره، واستتار موسى إنما كان من باب الحياء لا أنه يجب عليه ذلك.

والثاني: أنه يحتمل أن موسى كان عليه مئزر رقيق فظهر ما تحته لما ابتلَّ بالماء فرأوا أنه أحسن الخلق فزال عنهم ما كان في أنفسهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٨)، مسلم (٣٣٩).

(٢) صحيح البخاري (٣٤٠٤).

فصل في عبادة قومه العجل

قال علماء السِّير: كان السبب في عبادة قومه العجل أنه لما ذهب إلى الميقات وجاء جبريل على فرس يقال له: فرس الحياة، لا يصيب حافرَهُ شيءٌ إلا حيي، وكان جبريل قد أتى ليأخذ موسى إلى الميقات، فرآه السامريُّ، وكان صائغاً.

واختلفوا فيه: قال ابن عباس: كان من بني إسرائيل، ولم يزل مع موسى في مصر والشام.

وقال سعيد بن جبير: كان من أهل كِرمان. وقيل: من أهل باجَرْما، قريةٍ من قرى دَقُوقا بالعراق. والأول أشهر.

واختلفوا في اسمه: فقال ابن عباس: ظفر. وقال مقاتل: اسمه يوسف. وقال الحسن: منجار. وقيل: موسى بن ظفر. وكان منافقاً يظهر الإسلام، وكان من قوم يعبدون البقر، وقال ابن عباس: كان عظيماً من عظماء بني إسرائيل من قبيلة يقال لها: سامرة، ولكنه نافق لما قطع موسى البحر، وهو كان من الذين قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾.

وقال وهب: فلما رأى السامري ذلك الفرس تحت جبريل قال: لهذا الفرس شأن، وأخذ قبضةً من ترابه الذي وطىء عليه. ولما ذهب موسى إلى الميقات قال السامري لبني إسرائيل: إن الحلي الذي أخذتموه من القبط على وجه العارية قد صار غنيمةً لا يحلُّ لكم، فاحفروا حفيرة وادفنوه فيها حتى يرجعَ موسى من الميقات فيرى رأيه فيها، ففعلوا، فأخذ السامريُّ تلك القبضةَ فألقاها مع الحلي في الحفيرة فخرج عجلاً من ذهب، فذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ أي: مجسداً لا روح فيه، وإنما كان لحماً ودماً ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾[الأعراف: ١٤٨] أي: صوت مثل صوت البقرة. قال ابن عباس: خار خَوْرة واحدة، فزَفَنوا حوله ـ أي رقصوا ـ ولم يعدْ إلى مثلها. وقرأ عليٌّ عليه السلام: «له جؤار»، بالجيم والهمزة، وهو الصوت أيضاً.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي: من بعد ذهاب موسى إلى الميقات. وقال مجاهد: خار العجل ومشى وهو مرصَّع بالجواهر التي أخذوها من القبط، فقال السامري: هذا إلهكم وإله موسى، نسي فتركه هنا ثم خرج يطلبه.

وقال مقاتل: عبده منهم عشرة آلاف وهم الذين قالوا يا موسى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ [الأعراف:١٣٨] فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ﴾ [البقرة:٥١] وكانوا قد عدُّوا اليوم والليلة يومين فلما مضت عشرون يوماً ولم يرجع افتتنوا. وقال مقاتل: إنما سمي عجلاً لأنهم تعجَّلوه قبل رجوع موسى.

قوله تعالى: ولما رأوا أنهم قد ﴿سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾[الأعراف:١٤٩] ندموا على عبادته ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ أي: حزيناً لما فعلوه لأن الله أخبره بما صنعوا ﴿قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ أي بئس الفعل فعلتم ﴿وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾[الأعراف:١٥٠] غضباً على قومه، وكان شديد الغضب، قال زيد بن أسلم: كان إذا غضب اشتعلت النار في قلنسوته. قال: وكانت التوراة خمسة أسفار، فرفع أربعة إلى السماء وبقي سفر واحد. وقيل: سُبْعٌ واحد[1].

وقال أحمد: حدثنا سُرَيْج بن النعمان بإسناده عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الخَبرُ كالمُعايَنةِ، إنَّ اللهَ أخبرَ مُوسى بما صَنعَ قومُه في العِجلِ فلم يُلْقِ الألواحَ، فلما عايَنَ ما صَنعَ قومُه ألقاها فانكَسرَت»[2].

وقال مجاهد: وصاغ موسى تابوتاً من ذهب وزنه ستمائة مثقال، ونزَّل فتات الألواح فيه ﴿وَأَخَذَ﴾ موسى ﴿بِرَأۡسِ أَخِيهِ﴾ هارون ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ﴾[الأعراف:١٥٠] وقيل: إنما أخذ بأذنيه فعبَّر بالرأس عنهما. وقيل: إنما أخذ بلحيته وكان هارون أحبَّ إلى بني إسرائيل من موسى، لأنه كان ألين وألطف وأكبر سناً.

وقوله تعالى: ﴿ٱبۡنَ أُمَّ﴾ أي: يا ابن أمّاه، فاعتذر هارون، وقال: ﴿إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ﴾ بعقوبتك وأنا أسنُّ منك وكان قد

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢١٠ـ٢١٢.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٤٧).

استخلفه ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[الأعراف: ١٥٠] بعبادة العجل. فلما ظهر لموسى عذره ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾[الأعراف: ١٥١] الآية.

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾[طه: ٨٥] أي: ابتليناهم واختبرناهم وكانوا ست مئة ألف، فافتتن منهم عشرة آلاف. وقيل: كلهم عبدوه إلا عشرة آلاف ثبتوا مع هارون، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي﴾ لأنهم كانوا الجمَّ الغفير. ولما عاتبهم موسى ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ أي: ونحن نملك أمرنا ﴿وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: من حُليِّ [آل] فرعون، فجمعناها ودفعناها إلى السامريِّ، فألقاها في النار أو في الحفيرة لترجع فترى فيها رأيك، ففعل ما فعل.

وقال ابن عباس: كان هارون قد مرَّ على السامريِّ وهو يصوغ العجل، فقال: ما تصنع؟ فقال: ما يضرُّ ولا ينفع، فقال: اللهم ارزقه ما سأل، فكان كما قال هارون. فنهاهم هارون عن عبادته فقالوا: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾[طه: ٩١] أي: مقيمين. فلما عاد موسى سمع الصياح والجلبة، وهم يرقصون حول العجل، فقال: ما هذا؟ فقيل له: صوت الفتنة، فقال: ﴿يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟﴾ أي: أخطأوا، ألا تبعت أمري وقبلت وصيتي أو فارقتهم ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾[طه: ٩٢-٩٣] فراجعه بقوله: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾.

فإن قيل: فهارون أخوه من أبيه وأمه، فلِمَ كرَّر قوله: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه أراد استعطافه وترقيقه، قاله الكلبي.

والثاني: أنه قد قيل: إنه كان أخاه لأمه.

والثالث: فلأن الولد من الأم من جهة الحقيقة ومن الأب من جهة الحكم.

وإنما خصَّ اللحية والرأس بقوله: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ لأنهما عضوان يقصد بهما الإكرام من دون سائر الأعضاء ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ إن أنكرت عليهم أن يصيروا حزبين يقتل بعضهم بعضاً ﴿أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَـٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾[طه: ٩٤] أي: لم تراقب وصيتي حين قلت: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾(١).

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢١٢-٢١٣.

ثم أقبل موسى على السامريِّ وقال: ﴿فَمَا خَطْبُكَ﴾؟ أي: ما شأنك وما الذي حملك على ما صنعت؟ فقال: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ أي: رأيت ما لم يروه ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ يعني: من تراب حافرِ فرس جبريل ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي: طرحتها في الحُلي ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾[طه:٩٦] أي: زينت. فقال: ﴿فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾ ما دمت حياً ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي: لا تخالط أحداً. وأمر موسى بني إسرائيل أن يعتزلوه ولا يخالطوه. قال قتادة: فبقاياهم إلى اليوم يقولون: ﴿لَا مِسَاسَ﴾ فلو مسَّهم أحد أخذته الحمى في الوقت.

فإن قيل: فهلّا قتله موسى؟ قلنا: ذكر مقاتل وقال: أوحى الله إليه لا تقتله فإنه سخيٌّ، وفي رواية: فإن قتلته كان ذلك كفَّارةً له ثم قال موسى: يا سامريُّ ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ أي: بعذابك ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ أي: لن يخلفك الله إيَّاه ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾ أي: معبودك بزعمك ﴿ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي: مقيماً ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ بالنار ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾[طه:٩٧] أي: نعفي آثاره. ثم برده موسى بالمبارد وألقاه في اليم. وقال مقاتل: ثم قال موسى: يا إلهي، من صاغ العجل؟ قال: السامري، قال: فمن جعل فيه الصوت حتى خار؟ قال الله: أنا. قال: فأنت فتنتَ قومي؟! قال: يا موسى، إني حكيم بيدي الضلال والهدى، ومصداقه قوله: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾.

فصل في ذكر توبتهم من عبادة العجل

قرأت على شيخنا الموفق المقدسي رحمه الله، قلت له: أخبركم أحمد بن المبارك بإسناده عن سعيد عن قتادة عن الحسن قال: سأل موسى ربه أن يتوب على قومه من عبادة العجل فقال: يا موسى، لا توبة لهم إلا أن يقتلوا أنفسهم، فأخبر موسى قومه وقال: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾[البقرة:٥٤] أي: خالقكم، فقالوا: نصبر لأمر الله، وندم القوم على ما صنعوا، فأخذ موسى عليهم المواثيق ليصبرُنَّ على القتل، فأصبحوا غدوةً بأفنيتهم، كلُّ سبطٍ على باب بيته، وأمر موسى الذين لم يعبدوا العجل أن يقتلوا مَنْ عبده، وقال موسى: لعنة الله على رجل حلَّ حَبْوَته، فقتلوهم(١).

(١) «التوابين» ص ٨٦ـ٨٧، والحبوة: أن يجمع المرء بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها.

وقال ابن عباس: جعل الله توبتهم القتل لأنهم ارتدُّوا عن الإسلام، والكفر يبيح الدم، فجلسوا بأفنية البيوت وأصلتوا الخناجر، فكان الرجل يرى ابنه أو أخاه أو قريبه أو جاره أو صديقه فيستحي منه فقالوا: يا موسى، لا نقدر أن نقتل آباءنا وأبناءنا بل وأهلنا وأصدقاءنا، فأرسل الله عليهم ظُلْمَةً فكان لا يبصر بعضهم بعضاً، فانكشفت الظلمة عن سبعين ألف قتيل، فبكى موسى وهارون عليهم، فأوحى الله إليهما: قد جعلتُ القتلَ للمقتول شهادةً، وللقاتل توبةً وتكفيراً عن ذنوبه. قالوا: فما آية توبتنا؟ قال: على أن يقوم السلاح فلا يعمل، وترتفع الظلمة.

وقال مجاهد: قتلوا حتى خاضوا في الدماء، وصاح النساء والصبيان والشيوخ يا موسى: العفوَ العفوَ، فبكى موسى وتضرَّع، فأنزل الله التوبة، فقتلاهم شهداء وأحياؤهم مغفور لهم(١).

فصل في ذهاب السبعين إلى الطور يعتذرون من عبادة العجل

قال الله تعالى: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾[الأعراف: ١٥٥] ومعناه: من قومه. فلما نزع حرف الصفة نَصَب.

واختلفوا في سبب اختيار موسى السبعين:

فقال السُّدي: أمر الله موسى أن يأتيه في أناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل فاختار موسى السبعين، فلما صعدوا الجبل قالوا: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾[البقرة: ٥٥] فإنك قد كلَّمته فأَرِناهُ، فأخذتهم الصاعقة فماتوا.

وقال ابن إسحاق: إنما اختارهم ليتوبوا إليه مما صنعوا.

وقال الكلبي: أمر موسى السبعين أن يتطهَّروا ويطهِّروا ثيابهم ويصوموا، ثم خرج بهم إلى طور سيناء لميقات ربِّه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه، فلما دنوا من ذلك المكان قالوا: يا موسى، اطلب لنا أن نسمع كلامَ ربنا، فقال: أفعل، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشَّى الجبل كله، ودخل موسى حتى غاب فيه،

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٩/ ٧٢. وانظر «تفسير البغوي» ص ٤٩٣.

وقال للقوم: ادنوا، وكان موسى إذا كلَّمه ربُّه وقع على جبهته نورٌ ساطع لا يستطيع أحدٌ من بني إسرائيل أن ينظر إليه، فضرب دونه الحجاب ودنا القوم فدخلوا في الغمام وسمعوه يكلِّم ربه وربه يكلمه، يأمره وينهاه. فلما فرغ من المناجاة وانكشف الغمام عن موسى أقبل إليهم، فقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[البقرة: ٥٥] ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ﴾ [النساء: ١٥٣] وهي الرجفة فماتوا جميعاً، وأنكر قوم أنهم سمعوا كلام الله، وقالوا: إذ سمعوا كلام الله، فأيُّ ميزة لموسى عليهم.

وقال وهب: لم تكن الرجفة موتاً وإنما كانت غَشْيَةً، فخاف موسى عليهم ورقَّ لهم وقال: يا رب، ماذا أقول إذا رجعت إلى بني إسرائيل ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي عبدة العجل؟ فأحياهم الله وجعلهم أنبياء كلهم(١).

فإن قيل: فكيف قال موسى هذا وقد علم أن الله أعدل من أن يؤاخذ بجريرة الجاني غيره؟ قلنا: هذا استعطافٌ من موسى لله تعالى، وتقديره: لا تهلكنا، فكان دعاء، ونظيره قول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾[المائدة: ١١٨].

فصل في قصة أريحا

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠].

قال ابن عباس: من كان له بيت وخادم وامرأة صالحة وبُلْغَة فهو ملك، وقد روي هذا المعنى مرفوعاً، فقال أبو إسحاق الثعلبي: حدثنا عبد الله بن حامد بن محمد بإسناده عن أبي سعيد الخُدري قال: قال رسول الله ﷺ: «كانَ بنُو إسرائيلَ إذا كانَ لأحدِهم خادِمٌ وامرأةٌ ودَابةٌ يُكْتَبُ ملِكاً»(٢).

﴿يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[المائدة: ٢١]. واختلفوا فيها:

قال ابن عباس: هي أرض فلسطين، والأردن، والطور وما حوله، والغَور وما والاه.

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢١٤ـ٢١٥.

(٢) تفسير الثعلبي ٤/ ٤١.

obeikandl.com

وقال زيد بن ثابت: الشام كله مقدس ويدخل فيه دمشق.

وقال ابن عمر: حرم مكة والبيت المقدس. والأول أصح.

وقال مقاتل: وإنما قال ذلك موسى لما نزل على أريحا، ومعنى ﴿كَتَبَ﴾ أي: في اللوح المحفوظ. وكانت أريحا قرية الجبارين وهم العمالقة، وقيل: الكنعانيون، وأمر موسى بقتالهم وجهادهم، وكان موسى قد نقَّب على بني إسرائيل اثني عشر نقيباً بعدد الأسباط، ومن هنا نقَّب النبي ﷺ النقباء ليلةَ العقبة، ومن هؤلاء النقباء يوشع بن نون وكالب بن يوفنَّا، والنقيب: الكفيل عن قومه بالوفاء على ما أمروا به.

وقال ابن إسحاق: ولما دنا موسى من أريحا بعث النقباء يتحسسون الأخبار، فلقيهم عوج بن عناق، وقال الثعلبي: قال ابن عمر: كان طوله ثلاثة وعشرين ألف ذراع وثلاث مئة وثلاثين ذراعاً، وكان يعتجر بالسحاب ويشرب الماء منه، ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه في عين الشمس ويأكله، وهو ابن بنت آدم(١) ـ وقد ذكرناه في الطوفان ـ وأن الماء كان لا يبلغ كَعْبَهُ. فالتقى بالاثني عشر نقيباً وعلى رأسه حزمة حطب فأخذهم وجعلهم في حجزته، وا·لق بهم إلى زوجته فقال: انظري إلى هؤلاء الذين يزعمون أنهم يريدون قتالنا، وطرحهم بين يديها، وقال: ألا أطحنهم برجلي؟ فقالت: لا بل خلِّ عنهم ليخبروا قومهم بما رأوا، فأرسلهم؛ فلما خرجوا قال بعضهم لبعض: إن أخبرتم القوم رجعوا عن نبيِّ الله وساروا، فأما كالب ويوشع فإنهما كتما، وأما الباقون فتحدثوا. ولما شاع الحديث جاؤوا إلى موسى وقالوا: يا ليتنا متنا بأرض مصر وبكوا وقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾[المائدة: ٢٢] وهم الأقوياء، كان يدخل في كُمِّ أحدهم اثنان من بني إسرائيل، ويدخل في قشر الرمانة إذا نزع الحب منها خمسة رجال، ويحمل العنقود خمسة رجال من بني إسرائيل فقالوا: ﴿لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] فدعا عليهم موسى وقال: ﴿رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥] أي: العاصين. وكانت عجلةً من موسى فاستجاب له ربه وقال: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦]

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٣.

أي: يتحيرون في القفار، فأقاموا أربعين سنة يتيهون في ستة فراسخ، يسيرون كل يوم جادِّين حتى إذا ملُّوا إذا هم في الموضع الذي رحلوا منه. ومات النقباء العشرة الذين أفشوا الخبر ولم يبقَ من النقباء إلا يوشع بن نون وكالب بن يوفنَّا، ومات الذين قالوا لن ندخلها، وكانوا ست مئة ألف، في أربعين سنة. وكان ينزل عليهم المن والسلوى. ولما ذهبت الأربعون سنة وهلكوا، نشأت ذرية أخرى منهم، ففتحوا أريحا على يد موسى، وقيل: على يد يوشع كما يذكر وهب. وموسى هو الذي قتل عوج بن عناق[١].

ذكر مقتل عوج بن عناق

حكى جدي في آخر «أعمار الأعيان» عن ابن إسحاق قال: عاش عوج بن عناق ثلاثة آلاف سنة وست مئة سنة ولم يعش أحدٌ هذا العمر[٢].

وقال أبو جعفر الطبري: عاش ألف سنة[٣]. وهو وهم منه، لأن بين موسى وآدم ثلاثة آلاف سنة وزيادة.

وولد عوج بن عناق في دار آدم وهو ابن بنته عنَّاق. وقيل: اسم أبيه عناق صهر آدم. وقال الكلبي: جاء عوج إلى نوح أيام الطوفان وقال: احملني معك في السفينة، فقال: اذهب يا عدوَّ الله، فإن الله لم يأمرني بحملك، وطبَّقَ الأرضَ الماءُ وما جاوز كعبيه.

وقال وهب: كان عسكر موسى عدة فراسخ لأنهم كانوا ست مئة ألف، فقال عوج لأصحابه: أنا أكفيكم إياهم، فجاء فوقف عليهم وحذرهم، ثم جاء إلى جبل وقوَّر منه صخرة على قدر العسكر وحملها على رأسه ليقلبها على العسكر، فأرسل الله الهدهد وفي منقاره عود، فنقبها حتى تقوَّرت في عنقه فصرعته، وبلغ موسى فجاء ومعه عصاه وطولها عشرة أذرع، فنزا في الهواء عشرة أذرع أخرى حتى أصاب كعبه وهو مصروع فقتله، وأقبل جماعة من أصحابه فحزُّوا رأسه. وقال الثعلبي: ولما قتل وقع على نيل مصر فجَسَرهم سنة[٤].

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٤_٢٤٦.
(٢) «أعمار الأعيان» ص ١٣٠.
(٣) جاء عند الطبري في «التاريخ» ١/ ٤٣١ أنه عاش ثلاثة آلاف سنة.
(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٤.

وقال نوف البكالي: كان طول سرير عوج ثمان مئة ذراع وعرضه أربع مئة ذراع. ولما ضربه موسى خرَّ على نيل مصر فجسره الناس سنةً يمرون على أضلاعه وصلبه.

قلت: والعجب من الثعلبي ومن نوف كيف يرويان مثل هذا الكلام الذي تنفِر منه العقول السليمة، والواقعة كانت بأريحا وأين نيل مصر؟ وعلى تقدير ما حكى الثعلبي عن ابن عمر أن طوله ثلاثة وعشرون ألف ذراع يكون طوله أقل من فرسخين، لأن الفرسخ اثنا عشر ألف ذراع وبين أريحا ومصر مئة فرسخ وزيادة.

وروي عن بشر الحافي أنه قال: كان التجار في البحر يخافون منه فيعدُّون له كُرَّين من الدقيق فيخبزه مَلَّتَيْنِ فيأكلهما، فهذا كافرٌ يطعمه الله هذا في كلِّ يوم فكيف يُضيعُكَ وأنت تعبده وقوتُك رغيف أو رغيفان.

وقال وهب بن منبه: وكانت أمه عناق أول من بغى على وجه الأرض، وكانت كل إصبع من أصابعها ثلاثة أذرع في عرض ذراعين، وفي كل إصبع ظفران من حديد مثل المناجل، وكان مكان جلوسها مقدار جريب، ولما استمرت على البغي بعث الله سبحانه عليها أُسوداً وذئاباً فمزقتها[(١)].

فصل في نتق الجبل عليهم

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾. قال ابن عباس: لما أنزل الله عليهم التوراة أبَوْا أن يقبلوها لأن أحكامها ثقلت عليهم، فرفع الله عليهم جبلاً بمقدار عسكرهم، وكانوا ست مئة ألف، وقال لهم: إن لم تقبلوها وإلا ألقيتُ عليكم هذا الجبل. ومعنى الظلة: كل شيء أظلك ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ أي: عليهم ﴿خُذُواْ﴾ تقديره: وقلنا لهم: خذوا ﴿مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾[الأعراف: ١٧١] أي: بجدٍّ واجتهاد.

وقال الحسن البصري: فسجد كلُّ واحد منهم على حاجبه الأيسر، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل مخافةَ أن يسقط عليه، فلذلك ليس في الدنيا يهودي إلا ويسجد على حاجبه الأيسر ويقول: هذه السجدة التي رفع الله بها عنا العذاب.

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٤.

obeikandl.com

فصل في التوراة واليهود

فأما التوراة: فقال الفراء: فأصلها من وَرَى الزند ـ بالفتح، ورُوِيَ بالكسر أيضاً ـ فسميت التوراة توراةً لأن الأحكام ظهرت منها.

وأما اليهود فأصله من التهود وهو الميل.

وقال الحسن: لما أنزل الله تعالى التوراة لم يبق على وجه الأرض حجرٌ ولا شجر ولا جبل إلا اهتز، فليس على وجه الأرض يهوديٌّ إلا ويهتزُّ عند قراءة التوراة، ويقولون: اهتزت السماوات والأرض.

وقال الجوهري: يقال: هاد وتهوَّد إذا صار يهودياً. قال: والهُوْدُ: اليهود، والتهويد: المشيُ الرُّوَيْد. والتَّهَوُّد: أن يصير الإنسان يهودياً، ومنه الحديث: «فأبواه يُهَوِّدانه وينصرانه»[1].

فصل في بناء ظَفَار

وقال ابن الكلبي: وفي زمان موسى بنيت مدينة ظَفَار باليمن، بناها رجل من حمير يقال له: شمر بن الأملوك[2] الحميري، وهو أول ملوك اليمن من العرب، ونفى العمالقة من اليمن.

وقال الجوهري: وظَفَارِ مثل قَطَامِ مدينة باليمن، وجزع ظَفَاري منسوب إليها، وفي المثل: من دخل ظَفَارِ حَمَّر[3].

وسألت شيخنا أبا اليمن الكندي رحمه الله عن هذا فقال: سببه أن بعض العرب دخل على ملك ظَفَار فوقف، فقال له الملك: ثِبْ ـ وهو بلغتهم: اقعد ـ فلم يفهم الرجل فوثب إلى فوق فوقع وتكسَّر، فقال الملك: من دخل ظفار حمَّر، أي تكلَّم بلغة حمير.

---

(١) «الصحاح» (هود). والحديث أخرجه البخاري (١٣٥٨) ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في تاريخ الطبري ١/ ٤٤٢: شمير بن الأملول، وفي المنتظم ١/ ٣٧١: شمير بن الأهلوك.

(٣) «الصحاح» (ظفر).

فصل وفي أيام موسى احترق ابنا هارون

وقال وهب بن منبه: كان يسرج في البيت المقدس كل ليلة ألف قنديل، يخرج من طور زيتا عينٌ من الزيت حتى تصبَّ في القناديل ولا يُمسُّ بالأيدي، وتنحدر من السماء نار بيضاء فتسرج القناديل، وكان المتولي لذلك ابنا هارون، فأوحى الله إليهما لا تسرجا بنار الدنيا، فأبطأت النار عنهما ليلةً فعمدا إلى نار من نيران الدنيا فأسرجا بها، فانحدرت النار من السماء فأحرقتهما، فجاء الصريخ إلى موسى بالخبر فقال: يا إلهي أحرقت ابنَيْ أخي، فقال الله تعالى: يا موسى، هكذا أفعل بأوليائي إذا عصوني، فكيف أفعل بأعدائي؟(١).

فصل في قصة البقرة

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾[البقرة: ٦٧] الآية. وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: وُجد قتيل في بني إسرائيل اسمه عاميل، فلم يعرفوا مَنْ قتله.

واختلفوا في سبب قتله على قولين:

أحدهما: أنه كان رجلاً كثير المال لا يولد له ولد، وله ابنُ أخٍ فقيرٌ لا وارثَ له غيره، فطالت عليه حياته فقتله ليرثه، فلما قتله احتمله ليلاً فأتى به سبطاً آخر، فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح فادَّعاه، فكادوا يقتتلون، فأتوا موسى فأمرهم بذبح البقرة، قاله عطاء وابن سيرين.

والثاني: أن رجلاً من بني إسرائيل كانت له بنت وابن أخ لا مال له، فخطبها من أبيها فغضب أبوها ولم يزوِّجْهُ إياها، فقال: والله لأقتلن عمِّي، ولآخذنَّ ماله، ولأنكحنَّ ابنته، ولآكلنَّ ديته، فأتاه فقال: قد قدم تجارٌ في بعض الأسباط فانطلقْ معي فخذْ لي من تجاراتهم لعلِّي أصيبُ منها، فإنهم إذا رأوك معي أعطوني، فخرج معه، فلما بلغا ذلك السبط قتله ابن أخيه، ولما أصبح جاء يطلبُ عمَّه وقال: قتلتموه، ثم

(١) «المنتظم» ١/ ٣٧٢، وفضائل القدس ١١٣.

نادى: واعمَّاه، وطلب منهم ديته، ثم أتى موسى فأخبره وقال: يا نبيَّ الله، ما أَجدُ أحداً يبيِّن لي قاتله سواك، فأمره بذبح البقرة، وذلك قبل أن تنزل القسَامة في التوراة، حكاه السدِّي عن أشياخه.

وقال ابن عباس: أوحى الله إليه أن يأمرهم بذبح البقرة فتنطَّعوا عليه فقالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾[البقرة: ٧٠] وما صفتها ـ وقد ذكرنا ذلك في «التفسير» ـ ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ لا كبيرة ولا صغيرة ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بين الفارض والبكر إلى أن قال: ﴿صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ أي: شديدةُ الصُّفرةِ؛ وقال الحسن: أراد بصفراءَ سوداء، والعربُ تسمِّي الأسودَ أَصفر، وقد أنكروا هذا على الحسن، وقالوا: هو غلط منه، لأن العرب لا تعرف هذا في نعوت البقر، وإنما هو في نعوت الإبل، وإليه أشار الأعشى(١)، وإنما العرب تقول: أصفر فاقع، وأخضر ناصع، وأبيض يَقَق، وأسود فاحم وحالك(٢). وقال الجوهري: وربما سمت العرب الأسود أصفر(٣).

و﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾[البقرة: ٦٩] من حسنها وصفاء لونها. وروى الثعلبي عن علي عليه السلام أنه قال: من لبس نعلين أصفرين لا يزال مسروراً، وقرأ هذه الآية.

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠] ومعناه: أعاملة هي أم سائمة؟ وإنما لم يقل: تشابهت لأنه أراد جنس البقرِ تشابه علينا ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إلى وصفها(٤).

حدثنا أبو القاسم عبد المحسن بن عبد الله بن أحمد الخطيب الطوسي بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لو لم يستثنوا ـ يعني أصحاب البقرة ـ

---

(١) بقوله:

تلك خيلي منه وتلك ركابي ... هن صُفرٌ أولادُها كالزبيب

انظر ديوانه ص ٢٧.

(٢) انظر «زاد المسير» ١/ ٩٧ـ٩٨.

(٣) «الصحاح» (صفر).

(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٣٥.

لما اهتدوا إلى وصفها أبداً، ولو عمدوا إلى أي بقرة فذبحوها أجزأهم، ولكن شدَّدوا فشدَّد الله عليهم»(١).

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ أي: غير مذلّلة بالعمل ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ بالزراعة أي: تقلبها ﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ﴾ من العيوب ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي: بياض وسواد مختلف اللون ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالبيان التامّ ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: لغلاء ثمنها فإنها بلغت مالاً عظيماً.

والثاني: مخافة الفضيحة أن يكون القاتل منهم.

والثالث: وما كادوا يفعلون باجتماع أوصافها.

وقال ابن عباس: طلبوها فلم يجدوها إلا عند الفتى البار بوالديه(٢)، وكانت له عجلة قد خلَّفها له أبواه في غيضة، وقصتها طويلة، وقد ذكرناها في «التفسير».

حاصلها: أنهم اشتروها منه بملء جلدها ذهباً، وقيل: بوزنها عشر مرات ذهباً ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ يعني: القتيلَ.

واختلفوا في البعض:

قال ابن عباس: بلسانها.

وقال مقاتل: بعجب ذنبها.

وقال مجاهد: بغضروفها، وهو أصل أذنها، والقولان الأولان أصح. أما اللسان فلأنه آلة الكلام، وأما عَجْب الذنب فجميع ما في الحيوان يبلى إلا هو فإنه يبنى منه الجسد كما تبنى السفينة على الخشبة الأولى.

فلما ضربوه قام حيّاً تشخب أوداجه فقال: فلان قتلني، ثم وقع ميتاً، فقتلوا قاتله.

فإن قيل: فقد قال ابن عباس: أقاموا في طلبها أربعين سنة حتى وجدوها قلنا:

---

(١) أخرجه الطبري (١١٧٤) و(١٢٣٥) و(١٢٤٥ـ١٢٤٦) وابن أبي حاتم (٦٩٨) موقوفاً على ابن عباس، وانظر عرائس المجالس ٢٣٥، وتفسير ابن كثير.

(٢) في (ب): «بأمه».

ضربوا قبره فأحياه الله.

فإن قيل: فقد كان الله قادراً على إحيائه من غير ضرب ببعضها، قلنا: فيه إظهار المعجزة دون الشعبذة، وإكراماً للبارّ بوالديه[١].

فصل في مغازيه

قال علماء السير: حارب موسى الكنعانيين واليونان والأمم الكافرة وأباد من كان بالشام منهم، وبعث بعثاً إلى الحجاز فقتلوا العمالقة، وكان ملكهم يقال له: الأَرْقَم، بحصن تيماء ويَثْرِب، وأسروا ابناً له شاباً لم يرَ الناس أحسن منه فلم تَطِبْ نفوسهم أن يقتلوه، وقالوا: نقدم به على موسى فيرى فيه رأيه، فاستقبلهم الناس بوفاة موسى فمنعهم بنو إسرائيل أن يدخلوا الشام وقالوا: أمركم موسى أن لا تستبقوا كافراً وقد أبقيتم هذا، فعادت تلك الطائفة ـ وهم من بني إسرائيل ـ إلى الحجاز، وسكنوا خَيبر ويَثْرِب وتَيماء، واتخذوا يَثْرِب مزارع، فبنُو قريظة والنَّضِير منهم وكذا بنو الكاهن، والكاهن ابن هارون بن عمران، والكاهن: العالم.

فصل في اجتماع موسى بالخضر عليهما السلام

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ الآيات.

اختلفوا في فتاه[٢]:

قال ابن عباس: هو يوشع بن نون، وإنما سمِّيَ فتاه لأنه كان يلازمه ويخدمه ويستفيد منه العلم.

وقال مقاتل: فتاه هو أخو يوشع بن نون.

وقال الكلبي: فتاه عبده. والأول أصح.

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٣٤ـ٢٣٥.

(٢) انظر في هذا وفيما سيرد: تفسير الطبري ١٥/٣٠٨، والثعلبي ٦/ ١٨٠، وعرائس المجالس ٢١٩، وزاد المسير ٥/ ١٦١.

ومعنى: «لا أبرح» قال مقاتل: أي: لا أزال أسير، و«مجمع البحرين»: ضفتاهما. واختلفوا في مجمع البحرين:

قال قتادة: البحر الرومي والشرقي، فالشرقي بحر فارس والرومي هو الغربي، وقال أبيُّ بن كعب: اجتمعوا بإفريقيَّة.

والثاني: بطَنْجَة، قاله محمد بن كعب القُرَظيُّ.

والثالث: أن المراد بالبحرين موسى والخضر، قاله مقاتل ورواه عن عليّ عليه السلام.

قال ابن عباس: وكان السبب في اجتماع موسى بالخضر أنه لما ظهر موسى وقومه على فرعون وقومه وأورثهم أرضهم وديارهم قام موسى فيهم خطيباً، فذكّرهم بنعم الله عليهم قال: وكلَّم الله نبيّكم[1] تكليماً واصطفاني لنفسه وألقى عليَّ محبة منه، فقال رجل: قد علمنا ما تقول، فهل على وجه الأرض أحد أعلم منك؟ فقال: لا، ولم يقل: فيما أعلم، قال مجاهد: فبعث الله إليه جبريل فقال: بلى لي عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك، وما يدريك أين أضع علمي؟ قال: يا رب وأين هو؟ قال: اطلبه على شاطىء البحر تجده هناك.

وقد اختلفت الروايات في القصة، فنبدأ بما ذكر في الصحيح فنقول:

قال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد بإسناده عن ابن عباس أنه تمارى هو والحارث بن قيس بن حِصْن الفَزَارِيُّ في صاحب موسى عليه السلام فقال ابن عباس: هو الخضر، فمرّ بهما أُبيّ بن كَعْب فدعاه ابن عباس فقال له: يا أبا الطُّفيل هلمَّ إلينا فإني قد تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل موسى السبيل إلى لُقِيِّه، فهل سمعت رسول الله ﷺ يقول أو يذكر في شأنه؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بينما مُوسى في ملأ مِن بني إسرائيلَ إذْ جَاءَه رجلٌ فقال: هَلْ تَعلمُ أحَداً أعلمُ مِنك؟ قال مُوسى: لا، فأَوْحى الله إليه: بَلَى عَبْدُنا الخضِر، فسألَ مُوسى السَّبيلَ إلى لُقْياه فجَعَلَ الله له الحُوتَ آيةً»، وفي رواية: «وقيلَ له: إذا فَقَدْتَ الحوتَ فارْجِعْ فإنَّك

(١) في (ب): «موسى».

obeikandi.com

سَتَلْقاه، فَسَار مُوسى ما شاءَ الله، ثم قال لفَتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ فقالَ فتى مُوسى حين سَأَله الغَدَاءَ: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣] فقالَ مُوسى لفتاه: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤] أي: يقصان الأثر فوجدا خضراً، فكان من شأنهما ما قصَّ الله في كتابه. وفي رواية: فكان موسى يتبع الحوت في البحر(١).

وفي رواية سعيد بن جبير وهي أتمُّ الروايات، قال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد بإسناده عن سعيد بن جُبير قال: قلتُ لابن عباس: سمعت نَوفاً البِكَاليَّ يزعم أنَّ موسى صاحبُ بني إسرائيل ليس هو موسى صاحب الخَضِر وإنَّما هُوَ موسى آخر فقال: كَذَبَ عدو الله، سمعتُ أُبيَّ بن كعب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قَامَ مُوسى خَطِيباً في بني إسرائيلَ فَسُئِلَ: أيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فقال: أنا، فَعَتِبَ الله عليه حيث لَمْ يَرُدَّ العلمَ إليه، فأَوْحَى الله إليه إنَّ لي عَبْداً مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ البَحْرَيْن هُوَ أعلمُ منكَ، قال مُوسى: يا ربِّ، كَيْف لي به؟ فقيل له: احمل حوتاً في مِكْتَلٍ فحيثُ تَفْقِد الحوتَ فهو ثَمَّ. قال: فانطلق هوَ وفتاهُ يُوشَع يمشيان، وقد حَمَلَ الحوتَ في المِكْتَل حتى أتيا الصخرةَ، فَرَقَدَ موسى وفتاهُ، فاضطرب الحوتُ في المِكْتَل حتى خرج منه فسَقَطَ في البَحْرِ، فأمسك الله عنه جِرْيَة الماءِ حتى كان مثل الطَّاق، فكان للحوت سرباً أي: طريقاً، ولفتاه عجباً، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ونسي صاحبُ الحوت أن يخبر موسى، فلمَّا أصبح موسى قال لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾[الكهف: ٦٢] ولم يجد موسى مشاقَّ النَّصَبِ حتى جاوز المكان الذي أُمِرَ به، فقال فتاه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ إلى قوله ﴿عَجَبًا﴾[الكهف: ٦٣]. قال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤] أي: يقصَّان الأثر حتى أتيا الصخرةَ ـ أو انتهيا إليها ـ فإذا برجلٍ مسجًّى بثوبٍ ـ أو مسجًّى عليه ثوبُه ـ فسلَّم عليه مُوسى، فقال الخَضِر: أَنَّى بأرضِكَ السلام، فقال: أنا موسى، قال: مُوسى بني إسرائيلَ؟ قال: نعم، قالَ: إنَّك على علمٍ مِنْ عِلْم الله علمكَهُ لا أعلمه، وأنا على عِلْمٍ من عِلْمِ الله علَّمَنيه لا تَعلَمُه. فقال له موسى: ﴿هَلْ

(١) صحيح البخاري (٧٤)، وصحيح مسلم (١٧٤).

أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]. ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾[الكهف: ٦٧ـ٦٩] قال له الخضر: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾[الكهف: ٧٠] قال: نعم، فانطلقا يمشيانِ على ساحل البحر فمرَّت بهما سفينةٌ فكلَّماهم أن يَحمِلُوهما فعرفوا الخضر، فحَمَلُوهما بغير نَوْلٍ، فعمد الخَضِر إلى لوحٍ من ألواحِ السَّفينةِ فنزَعه، فقال له موسى: قومٌ حَمَلُونا بغير نَوْلٍ عمدتَ إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾[الكهف: ٧١] ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢]. ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾[الكهف: ٧٣] الآية. ثم خرَجا من السَّفينةِ فبَيْنَما هما يَمشيانِ على السَّاحِلِ إذا غلامٌ يلعبُ مع الصبيانِ، فأخَذَ الخَضِر برأسِه فاقْتَلَعه بيده، فقال له: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الكهف: ٧٤ـ٧٥] قال: هذه أشد من الأولى ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ قال الخَضِر بيده فأقامه [الكهف: ٧٦ـ٧٧] فقالَ له موسى: قومٌ أتيناهم فلم يُضيِّفونا ولم يُطْعِمُونا ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧] ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[الكهف: ٧٨] قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يُقصَّ علينا من أخبارِهما». قال: قال رسول الله ﷺ: «كانت الأولى من موسى نسياناً». وجاء عُصْفور حتى وقع على حرف السفينة ثُمَّ نَقَر في البحر، فقال له الخضر: ما علمي وعلمَك وعلم الخلائق من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العُصْفُور مِنَ البحر.

قال سعيد بن جبير: وكان ابن عباس يقرأ: «وكان أمامهم مَلِك يأخذ كلَّ سفينةٍ صالحة غصباً». وكان يقرأ: «وأما الغلام فكان كافراً»[(١)].

وفي رواية: «فاضطَرَبَ الحوتُ في الماءِ فجَعَلَ لا يَلْتَئم عليه حتى صار مثلَ الكُوَّة،

(١) صحيح البخاري (٤٧٢٥)، وصحيح مسلم (٢٣٨٠).

فقالَ فتاه: ألا ألحقُ نبيَّ اللهِ فأخبرَه، فنسي. فلما تجاوَزا قال لفتاه: آتنا، وذكروه فيه؛ فرأى خضِراً مُستلقِياً على حُلَاوة القَفَا فقال: السَّلامُ عليكَ، فكشفَ الثوبَ عَن وَجْهه وقال: وعليكَ السَّلامُ، مَن أنتَ؟ فقالَ: موسى، فقال: ما جاءَ بك؟ فقال: جئتُ لِتعلِّمني مما عُلِّمت رُشداً، فقال: شيءٌ أمرتُ به أنْ أفعَلَه إذا رأيتَهُ لم تصبرْ». ثم قال رسول الله ﷺ عند هذا المكان: «رحمةُ اللهِ علينا وعلى آل مُوسى لولا أنَّه عَجِل لَرَأى العَجَبَ، ولكنَّه أَخَذَتْهُ ذَمَامةٌ من صاحبه». وكان ﷺ إذا ذكر أحداً من الأنبياء بدأ بنفسه. ثم قال: «فانطَلَقا حتى أتيَا أهلَ قريةٍ لئام، فَطَافا المجالسَ فاستَطْعَما أهلَها، إلى قوله: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾[الكهف:٧٨]. قال: فأخذ بثوبه ثم تلا إلى قوله: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾ إلى آخر الآية، وقال: فإذا جاء يُسَخِّرها وجدها منخرقةً فيتجاوز إلى غيرِها فأصلَحُوها بخشبةٍ. وأمَّا الغُلام فطُبعَ كافراً يومَ طُبع وكانَ أبوَاه قد عَطَفا عليه فلو أنَّه أدرَكَهما أرهَقَهما طُغْياناً وكُفراً»[١].

وفي رواية: «وفي أصل الشَّجَرةِ عينٌ يقالُ لها: الحياة لا يصيبُ من مائها شيءٌ إلا حيِيَ، فأصَابَ الحوتَ مِن تلك العينِ فتحَرَّكَ وانسلَّ من المِكْتَل، فدَخَلَ البحرَ»[٢].

وفي رواية: قيل له: خُذْ حوتاً مَيْتاً حتى يُنْفَخَ فيه الرُّوح، فدخلَ الحوتُ البَحْر فأمسك الله عنه جِرْيَةِ الماء، ووجَدَ الخَضِر على طِنْفِسة خَضْراء على كَبِدِ البحر، وفيه: فقال الخَضِر لموسى: أما يَكْفيك أنَّ التَّوراة بيدِك وأنَّ الوحي يأتيك»[٣].

وفي رواية: إنَّ لكَ علماً لا ينبغي لي أنْ أعْلَمَهُ، وإنَّ لي عِلْماً لا يَنْبغي لكَ أن تَعْلَمه» وفيه: «فأضجعَ الغلامَ فَذَبَحَهُ بالسِّكِّينِ» وفيه: «فخَشينا ﴿أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ أنْ يَحْمِلَهُمَا حُبُّهُ على أنْ يُتَابعاه فأُبْدِلا مَكَانه جارية»[٤]. هذا قدر ما أخرج البخاري ومسلم في «الصحيحين» وعند البخاري غير مسند.

ويزعمون أن الدلك: هُدَدُ بن بُدَد، واسم الغلام المقتول: جَيسُور[٥]، وكانت

(١) صحيح مسلم (٢٣٨٠) (١٧٢).

(٢) صحيح البخاري (٤٧٢٧).

(٣) صحيح البخاري (٤٧٢٦).

(٤) صحيح البخاري (٤٧٢٦).

(٥) صحيح البخاري (٤٧٢٦).

obeikandi.com

الأولى نسياناً، والثانية سهواً، والثالثة عمداً(١).

تفسير غريب الحديث: «هلمَّ» أي: أقبل، قال الجوهري: هلمَّ يا رجل بمعنى تعال(٢).

و«نوف»: رجل من أهل الشام. وبَكالة ـ بفتح الباء ـ قبيلة من حِمْيَر، و«كَذَب»: أي: أخطأ، والعرب تضع الكذبَ موضع الخطأ، و«المِكْتَلُ»: الزِّنبيل، و«الطَّاقُ»: عقد البناء، و«السَّرَب»: الطريقُ، و«المُسَجَّى»: المُغَطَّى، و«حُلاوة القَفَا»: ما أَدْبَر منه، و«الذَّمَامةُ»: الحَياءُ، وقيل: القَبَاحةُ، وهي تكون في الخُلُق، والدَّمامة في الخِلْقَة.

وقال علماء السِّير: لما سأل موسى عليه السلام ربَّهُ أنْ يُرِيَه الخَضِر عليه السَّلام قال له: ائت جانب البحر فإنكَ تجدُ على شطّه حوتاً، فخذه وادفعه إلى فتاك، ثم الزم شطَّ البحر، فإذا نسيت الحوت وذهب منك فهناك تجد العبدَ الصالحَ.

وفي رواية ابن عباس: فإذا عاش الحوت وجدْتَه.

قال: فتزوَّد خبزاً وسمكة مالحة، وقال: ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾ أي: لا أزال أسير حتى أَجِدَه ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبًا﴾[الكهف: ٦٠] أي: مدة ثمانين سنة وهو الحُقُب.

فلما وصل إلى الصخرة التي عند مَجْمَع البَحرين وعندها عينُ الحياة أصاب الحوت روح الماء وبرده فاضطربَ وخرجَ من المِكْتَل فدخلَ البحرَ، فذلك قوله تعالى: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾[الكهف: ٦١] وإنما قال: نسيَا والحوتُ كان مع يُوشَع لأن الفعل يجوز أن يضافَ إلى اثنين وهو لواحد كقوله تعالى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾[الرحمن: ٢٢] وإنما يخرج من أحدهما وهو المالح دون العذب.

فجاع موسى فقال لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾[الكهف: ٦٢] فقال: ﴿أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ﴾[الكهف: ٦٣]. قال وهب: الصخرة دون نهر الزيت بالمغرب ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ﴾ أنْ أذكره لأنه كان مع الفتى فأخبر عن نفسه فرجعَا إلى الصخرة فوجدَا الخَضِر

(١) البخاري (٢٧٢٨) وفيه: والثانية شرطاً.

(٢) «الصحاح»: (هلم).

عندها، والخضر لقب له، وسنذكر اسمه بعد هذا، ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣] لأنه هو السبب.

وقال مقاتل: وجد الخَضِر نائماً على وجه الماء على طِنْفِسةٍ خَضْرَاءَ، وهو المراد بما ذكر في الحديث على وجه الماء، أي: وسطه، فسلَّم موسى عليه فقال: وعليك السلام يا نبيَّ بني إسرائيل، فقال موسى: ومن أخبرك بي؟ فقال: الذي دلَّك عليَّ، ومن قال الخضر كان نبياً يقول أوحي إليه ذلك.

فإن قيل: فلمَّا ذهب إلى الميقات أقام أربعين ليلةً لم يأكل، ويجوعُ نصفَ يوم فيقول آتنا غداءنا؟ فالجواب: إنَّ في ذهابه إلى الميقات كان وعدُ الانتظار يشغله عن الطعام والشراب، وفي سفر الخَضِر معلماً فكان سفر تأديب فجاع.

﴿ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً﴾[الكهف: ٦٥] أي: نعمة ﴿مِّن لَّدُنَّآ﴾ أي: من علم الغيب ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ أي: صواباً، وهذا تحريض على طلب العلم والتواضع ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾ أي: لن تطيق لأني أعلم علم الغيب وأنت لا تعلمه، فتنكر ظاهر ما ترى ولا تعلم الباطن، وهذا معنى قوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾.

فإن قيل: فَمَا صَبَرَ؟ قلنا: ظاهر الشرع أوجب له الإنكار عليه، وقد قيَّد الله صبره بالمشيئة، فلما ركبا في السفينة قال أهلها: هؤلاء لصوص أخرجوهم، فقال صاحبها: ما هم بلصوص ولكني أرى وجوه الأنبياء، فأخذ الخَضِر فأساً فقطع لوحاً منها، وكانوا في اللُّجَّة، فحشا موسى موضع اللوح بثوبه وقال: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ أي: منكراً ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾.

وقال ﷺ: «كانت الأولى من موسى نسياناً»[(١)] ولهذا قال: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ﴾ حتى رأى غلاماً فقتله، قال مجاهد: كان اسم الغلام خشن بُود[(٢)] واسم أبيه ملاس وأمه رحمى[(٣)]، ولم يبلغ الحلم، قالوا: ومع هذا فكان يقطع الطريق ويفسد في

(١) صحيح البخاري (٢٧٢٨).

(٢) في «عرائس المجالس» ص ٢٢٨: حسنود.

(٣) في «عرائس المجالس» ص ٢٢٨: رحمة.

الأرض، فقال له موسى: «أقتلت نفساً زاكية» ـ بألف[١] ـ وهي التي لم تذنب قط. ومن قرأ ﴿زَكِيَّةً﴾ أراد التي أذنبت ثم تابت، وقيل هما لغتان.

فإن قيل: ففي الحديث الذي رويتم أنَّ الغلام الذي قتله الخَضِر طبع كافراً فكيف قال زاكية؟ قلنا: الزاكية في البدن، أي: سالمة مِنَ العيوب، والزَّكيَّةُ في الدين، ذكره المبرِّد. وقال الحسن: إنما شقَّ ذلك على موسى لأن الخضر أضجعَ الغلام وذبحه. ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: بغير قتل نفس ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ أي: منكراً، والنُّكرُ أشدُّ من قوله إمراً ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ قال ابن عباس: هي أَنْطَاكِيَة، وقال ابن سيرين: الأُبُلَّة، وقيل: باجَرْوان من أعمال واسِط.

قلت: والعجب من هذا، والواقعة كانت بالمغرِب بإفريقِيَّة، وقيل: بطنْجَة، وقيل: عند نهر الزيت وهو أقصى المغرب، فما الذي أتى بها إلى أَنْطَاكِيَة والأُبُلَّة؟ وهو من أقصى الدنيا وأبعد الأرض عن السماء، فيحتمل أنها قرية من قرى المغرب.

﴿فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ أي: يقروهم، لأنهم كانوا أهل قرية لئاماً ﴿فَوَجَدَا فِيهَا﴾ أي: في القرية ﴿جِدَارًا﴾ أي: حائطاً، قال وهب: كان طوله في السماء مائة ذراع ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أي: يسقط وينهدم، ومنه انقضاض الكواكب وهو سقوطها وزوالها عن أماكنها. وقال ابن جبير: مسح الجدار بيده فاستقام فقال له موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ وقيل: ضيافة يعني على إقامته وإصلاحه ﴿قَالَ﴾ الخضر ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ﴾ أي: سوف أخبرك ﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ ثم شرع يشرح له فصلاً فصلاً:

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ قال وهب: كانت لعشرة إخوة، خمسة زَمْنى وخمسة يعملون في البحر ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ ووراء بمعنى أمام كقوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] وقيل: معنى وراءهم خلفهم، رجعوا عليه في طريقهم، وقيل: معناه يأخذ كل سفينة صالحة غصباً.

---

(١) وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو، انظر النشر ٢/٣١٣.

obeikandi.com

واسم الملك جلندى في قول ابن عباس، وكان كافراً. وقال محمد بن إسحاق: كان اسمه منولة بن جلندا اردى[١] وقيل: اسمه: هُدد بن بُدَد، وقال مقاتل: كان من ثَقِيف، وهو جدُّ الحجاج بن يوسف الثقفي.

فإن قيل: فقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ يدلُّ على أن المسكين من له شيء ولا يزول عنه اسم المسكنة إذا كانت به حاجة، ويجوز له أخذ الزكاة، وقد قال أبو حنيفة: المسكين من لا شيء له أصلاً، وقال ابن عباس: كانت السفينة تساوي ألف دينار.

والجواب: إن أبا حنيفة يحتجُّ بقوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٦] وهو الذي لزق بالتراب من فقره. وقال عيسى بن عمر: قلتُ لأعرابي: أفقير أنت أم مسكين؟ فقال: لا والله بل مسكين. وأما أصحاب السفينة فقد روى عطاء عن ابن عباس أنهم كانوا أُجَراءَ، ولم تكن ملكاً لهم. وأما قوله بأن الزكاة تصرف إلى المساكين فنحن نقول به ولا خلاف في ذلك، وإنما الخلاف في الوصية إذا قال: ثلث مالي للمساكين، هل يدخل الفقراء في ذلك أم لا؟ عند أبي حنيفة لا يدخلون وتكون للمساكين، وعند الشافعي يدخلون لما عرف.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ يغشاهما، وقيل: يكلِّفهما ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ قال سعيد بن جبير: خشينا أنْ يَحمِلَهما حبُّه على أنْ يدخلا في دينه ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ صلاحاً وإسلاماً وإيماناً ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي: قرابة. وقال الكلبي: أبدلهما الله جارية فتزوجها نبيٌّ من الأنبياء، فولدت له نبياً، فهدى الله على يديه أمّةً من الأمم. وروى الثعلبي عن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام قال: أبدلهما الله جارية فولدت سبعين نبياً[٢].

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ واسمهما أصرم وَصُرَيْم ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ واختلفوا فيه على أقوال:

---

(١) في «عرائس المجالس» ص ٢٣٠: منواه بن جلندى الأردني.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٣٠.

أحدها: كانت فيه صحفٌ فيها علم، حكاه سعيد بن جبير عن ابن عباس.

والثاني: أنه لوح من ذهب فيه مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم، عجبتُ لمَنْ يُوقِن بالقَدَر كيف يَحزن، وعجبتُ لمَنْ يُوقِن بالموتِ كيف يفرح، وعجبتُ لمَنْ يُوقِن بالرِّزقِ كيف يتعب، وعجبتُ لمَنْ يُوقِنُ بالحسابِ كيف يَغْفَل، وعجبتُ لمَنْ يَعرِفُ الدنيا وتقلُّبها بأهْلِها كيف يَطْمَئِنُّ إليها، لا إله إلا الله محمد رسول الله. قاله ابن عباس والحسن وجعفر بن محمد، وروي مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ[1].

والثالث: أنه مال. قال أبو إسحاق بإسناده عن مكحول عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾: «كان ذَهَباً وفضَّةً»[2]، وبه قال عكرمة.

والرابع: أنه كان مكتوباً على اللوح الذي من ذهب: أنا الله لا إله إلّا أنا، أنا وحدي لا شريك لي، خلقتُ الخير والشر، فطوبى لمن خلقته للخير وأجريته على يديه، والويل لمن خلقته للشرّ وأجريته على يديه، قاله مقاتل.

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ واسمه كاشح؛ وقال: معنى صلاحه أنه كان بينه وبين الأب الذي حفظ بصلاحه سبعة آباء.

قال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن محمد بن المنكدر قال: إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده والدويرات التي حول مَسْرَبته، فلا يزالون في حفظ الله وستره.

وكان سعيد بن المسيّب إذا رأى ابنه يقول: يا بنيّ لأزيدنَّ صلاتي من أجلك رجاءَ أن أُحْفَظَ فيك، ويتلو هذه الآية[3].

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ أي: قوتهما، وهو ثماني عشرة سنة ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ أي: يخرجاه من تحت الجدار ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ بل بأمر الله وإلهامه وتوفيقه إياي، وإطلاعي على العلم.

---

(١) انظر عرائس المجالس ٢٣٠، وتفسير الثعلبي ٦/ ١٨٨، وزاد المسير ٥/ ١٨١، والتبصرة ١/ ٢٣٧.
(٢) أخرجه الترمذي (٣١٥٢).
(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٣١.

قلت[1]: والعجب لموسى كيف ينكر على الخَضِر وقد جرى له من جنس ما أنكر، قال له: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ ونسي ما لقيه في اليمِّ، وأنكر عليه قتل الغلام ونسي قتله القبطيَّ، وأنكر عليه إقامة الجدار بغير أجر ونسي يوم ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾.

فصل

فإن قيل: فكم كانت أسفار موسى؟ فالجواب سبعة أسفار: سفر السَّلب، وسفر الهَرب، وسفر الطَّلَب، وسفر السبَب، وسفر النَّصب، وسفر الحَرْب، وسفر الطرب، فوجد في سفر السَّلب الأم، وفي سفر الهرب شُعَيْباً والعصا، وفي سفر الطَّلَب النبوَّة، وفي سفر السَّبَب النَّجاة، وفي سفر النَّصب الخَضِر، وفي سفر الحرب المنَّ والسلوى، وفي سفر الطَّرب القربَ والمناجاةَ.

وقد أشار جدي رحمه الله إلى بعض هذا في «المنتخب» فقال: سافر موسى سبعة أسفار: سفر التلف ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾[القصص: ٧] وسفر الهَرَب ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [الشعراء: ٢١]، وسفر الطلب ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ [القصص: ٢٩]، وسفر السَبَب ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى﴾ [الدخان: ٢٣] وسفر التعب ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا﴾ [الكهف: ٦٢]، وسفر الطَّرب ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وسفر العَجَب ﴿يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[المائدة: ٢٦]. فوجد في كل سفرة فائدة. ففي سفر التلف وجد الأم، وفي سفر الهرب وجد العصا والصهر، وفي سفر الطلب وجد النبوَّة والتَّكليم، وفي سفر السبب وجد الراحة من العدوِّ وغرق فرعون، وفي سفر التعب وجد الخضر، وفي سفر الطرب أخذ التوراة، وفي سفر العجب أكرم بالمن والسلوى والغمام.

فإن قيل: فكم الألفاظ التي قوبل بها موسى عليه السلام من لفظة «لن»؟ قلنا: خمسة: أمر قومه بالإيمان فقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ﴾[البقرة: ٥٥]، ووقعوا في التيه فقالوا: ﴿لَن نَّصْبِرَ﴾[البقرة: ٦١]، ونُدِبُوا إلى الجهاد فقالوا: ﴿لَن نَّدْخُلَهَا﴾[المائدة: ٢٤]، قال: أرِني قال له: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾[الأعراف: ١٤٣]، أقبل إلى الخضر للتعليم فقابله بلفظة ﴿إِنَّكَ لَن﴾[الكهف: ٦٧].

---

(١) في (ب): قال المصنف.

فصل في وفاة هارون عليه السَّلام

واختلفوا فيها على أقوال:

أحدها: أنَّ الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السَّلام: إنِّي متوفٌّ هارون فأتِ به جبل كذا وكذا، فخرج به نحو ذلك الجبل، فإذا ببيت مبنيٍّ وحوله شجرٌ لم يُرَ في الدنيا مثله، وفي البيت سريرٌ وعليه فرشٌ وريحٌ طيبةٌ، فأعجب هارون وقال: يا أخي أُحبُّ أن أنام على هذا السرير، فقال موسى: نَمْ، فقال: أخاف من صاحب البيت أنْ يراني نائماً على سريره فيصعب عليه، فقال له موسى: نم ولا تخفْ فأنا أكفيك أمره، فقال له هارون: نم معي، فناما على السرير فمات هارون وارتفع البيت والسرير والشجر، ورجَع موسى إلى بني إسرائيل، فقالوا: وأين هارون؟ قال: مات. قالوا: بل أنت قتلته حَسَداً له على حبِّ الرئاسة، حيث نحبُّه ونميل إليه وكونه أرفقَ بنا منك، فقال لهم: وَيْحَكُم أترَوْن أنِّي أقتل أخي، فسأل موسى ربَّه فأنزل الله السرير وهارون نائمٌ عليه، فرأوه بين السماء والأرض فصدَّقوه. قاله السُّدي(١).

والثاني: أنَّ هارون مات في التِّيه قبل موسى عليه السلام بثلاث سنين فدفنه موسى، فاتهمه بنو إسرائيل، فأوحى الله إلى موسى انطلق بهم نحو قبره، فانطلق بهم ونادى موسى: يا هارون أنا قتلتك؟ فخرج من قبره ينفض رأسه ويقول: لا والله أنا متُّ موتتي التي كتب الله عليَّ قال: فعدْ إلى مضجعك، فعاد. رواه عمرو بن ميمون عن ابن عباس(٢).

والثالث: أن هارون صعد مع موسى على الجبل فتوفاه الله، وعاد موسى باكياً فقالوا: أنت قتلته، كان أليَنَ لنا منك، فسأل الله تعالى، فجاءت به الملائكة يحملونه، فشاهدوه ميتاً على أيدي الملائكة. رواه ابن عباس عن عليٍّ عليه السلام، قال فذلك قوله تعالى: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ۚ﴾[الأحزاب: ٦٩].

واختلفوا في موضع قبره:

قال عكرمة: لم يطلع عليه أحد إلا الرَّخَم، فصار أصمّ، وإنَّه في التيه.

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٩، وتاريخ الطبري ١/ ٤٣٢، والمنتظم ١/ ٣٧٢.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٩.

وقال كعب الأحبار: هو في مغارة جبل السراة بمكان يقال له: مرات، مما يلي الطور، موضع في مغارة يسمع منها في الليل دويٌّ عظيم يفزع من سمعه، وقيل: هو مدفون في طور يقال له: طور هارون من بلاد الشَّوْبَك.

وقال جدي رحمه الله في «أعمار الأعيان»: مات هارون وله مئة وعشرون سنة[١].

وكذا هو في «التوراة»، وقال الحسن البصري: عاش مئة وثماني عشرة سنة، وكان أسنَّ من موسى بثلاث سنين فلما استكملها موسى مات. وقال مقاتل: ذكر الله هارون عليه السلام في أحد عشر موضعاً من القرآن.

فصل في وفاة موسى عليه السلام

قال أحمد بن حنبل: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر بن همَّام، عن أبي هريرة قال: جَاء مَلَكُ الموتِ إلى موسى فقال له: أجبْ ربَّكَ، فَلَطَمَ عينَ مَلَك الموْتِ فَقَلَعها، فرجع الملك إلى الله فقال: أرسلتني إلى عبدٍ لا يريدُ الموتَ وقدْ فَقَأَ عَيْني، فردّ الله عليه عَيْنَه وقال: ارجع إلى عَبْدي وقُلْ له: إنْ كُنْتَ تُرِيدُ الحياةَ فَضَعْ يَدَكَ على مَتْنِ ثَوْر فما توارى بيَدِكَ مِنْ شَعْرِه فإنَّكَ تَعِيشُ بكلِّ شَعْرةٍ سَنَةً، فَعادَ إليه فَأَخْبَرَه، فَقَال: ثُمَّ مَهْ، قال: تموتُ فقال: فالآنَ مِن قَريب. قال: يا ربِّ أَدْنِني مِنَ الأَرْضِ المقدَّسَة رَمْيَةَ حَجر. قال رسول الله ﷺ: «لو أني عِنْدَهُ لأَرَيْتُكم قَبْرهُ إلى جنبِ الطَّريق عِنْدَ الكَثيبِ الأَحْمَر». متفق عليه[٢].

وقال الحاكم أبو عبد الله: هذا الحديث موقوف على أبي هريرة لأنه قال في أوله: جاء ملك الموت، والمسند منه قوله عليه السلام: لو كنت هناك لأريتكم قبره، وكذا قال الحميدي في «الجمع بين الصحيحين»[٣]، وقد روي في غير الصحيح أن الحديث كله من كلام رسول الله ﷺ[٤].

---

(١) «أعمار الأعيان» ص ٩٥.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٧٦٤٦) والبخاري (١٣٣٩)، ومسلم (٢٣٧٢).

(٣) «الجمع بين الصحيحين» (٢٣٥٦).

(٤) أخرج الحديث مرفوعاً كله مسلم (٢٣٧٢) (١٥٨).

فإن قيل: فكيف قلع عين ملك الموت؟ فالجواب: أنه أتاه في صورة البشر، فخفي عنه أنه ملك الموت كما خفي عن رسول الله ﷺ جبريل أول ما جاءه في صورة دِحْيَة الكَلْبيّ، وكما جاءه في صورة أعرابي يسأله عن الإيمان، ثم عرفه بعد ذلك. فالعين المقلوعة هي العين البشرية دون الملكية، فلما عاد إليه وقد ردّ الله عليه عينه استسلم لأمر الله.

قال عبد الله بن أحمد بإسناده عن أنس قال: لما مات موسى بن عمران جالت الملائكة في السماوات بعضها في بعض، واضعي أيديهم على خدودهم ينادون: مات موسى كليم الرحمن، والرحمن حيّ لا يموت أبداً[(١)].

قلت: وهذا الذي ذكرته في وفاة موسى من «الصحيح»، ومن كتاب «الزهد» لأحمد ابن حنبل.

أما قول أرباب السِّير فقد اختلف فيه: فروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال: كان موسى يكره الموت، فأراد الله أن يحبِّبه إليه ويبغِّض إليه الحياة، فنبَّأ يُوشَع بن نون، فكان يوشَع يغدو على موسى ويروح فيقول له موسى: يا نبيَّ الله ماذا عهد إليك ربُّك؟ فيقول له يُوشَع: يا نبيَّ الله ألم أصْحَبْكَ كذا وكذا سنة، فهل سألتك يوماً عن ما عهد الله إليك حتى تكون أنت الذي يبتدىء؟ قال: فكره موسى الحياةَ وأحبَّ الموت[(٢)].

قلت: وهذه رواية ضعيفة فإن موسى هو الذي استخلف يُوشَع بن نون على بني إسرائيل.

وانقطع موسى في عريش يأكل خبز الشعير ويشرب في نقير، وإنما تمنى موسى الموتَ لما رأى يُوشَع قد قام مقامه فأحسن إلى بني إسرائيل، فتمنَّى الموتَ لأنَّ قلبه طاب لما رآه كذلك.

(١) «كتاب الزهد» ص ٩٤. ولفظه: لما مات موسى بن عمران عليه السلام جالت الملائكة في السموات يقولون: مات موسى فأي نفس لا تموت.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٤٩، وتاريخ الطبري ١/ ٤٣٣، والمنتظم ١/ ٣٧٤.

وعلى هذا يحمل قول محمد بن كعب القُرَظيّ: إنَّ موسى لما رأى الجماعة عند يُوشَع أَحبَّ الموت، لا على وجه الحسد.

وأما قول موسى ليوشع: ماذا عهد إليك ربك؟ فإنه أراد أن يختبره هل بلغ منزلة يعقل فيها عن الله ويكون أهلاً لإيداع السرِّ فيه أم لا. فلما رآه قد بلغ إلى تلك الدرجة تمنَّى الموت.

وروى السُّدي عن أشياخه قال: بينما موسى وفتاه يوشع يمشيان إذ هبت ريح سوداء، فظنَّ يوشع أنها الساعة، فالتزم موسى وقال: يا نبي الله هذه الساعة، فانسلَّ موسى من تحت القميص فذهب، فلما جاء يُوشَع بالقميص أخذته بنو إسرائيل وقالوا: قتلتَ نبيَّ الله، فقال: والله ما قَتَلْتُه ولكنه انسلَّ مني، فكذَّبوه وأرادوا قتله، وقالوا: أنت قتلته، فأوحى الله إليه لا تخفْ، فلما كان في تلك الليلة لم يبق ممن اتهم يوشع بقتل موسى إلا وأُتيَ في منامه فقيل له: إنَّ موسى رُفعَ ولم يقتله يُوشَع، فتركوه(١).

وذكر وهب بن منبه عن أشياخه قالوا: لما استخلف موسى يُوشَع بن نون جمع أهله، وعهد إليه بمرأى من الناس، وطاب قلبه باستخلافه لنهضته وأمانته ـ فإنه لم يكن في بني إسرائيل من يصلح للأمر سواه ـ وانفرد موسى في عريش يستظل به ويجمع السنبل فيأكل منه، وعليه جبَّة من صوف، فخرج يوماً من عريشه فمرَّ بقوم يحفرون قبراً وكانوا ملائكة فعرفهم، واطلع فيه فأعجبه، ورأى فيه من الرَّوْح والخضرة والنضارة والبهجة ما حيَّره، فقال لهم: يا ملائكة الله لمن هذا القبر؟ فقالوا: لعبدٍ كريم على الله، فقال: إنَّ هذا العبد من ربه بمنزلة، ما رأيتُ مضجعاً كاليوم، فقالوا: يا صفيَّ الله أتحبُّ أن تكون ذلك العبد؟ قال: ودِدْتُ ذلك، قالوا: فانزلْ فاضطجعْ فيه وتوجّه إلى ربِّك، ففعل، فقالوا: تنفَّس، فتنفَّس فمات، وسوَّت الملائكة عليه التراب(٢). قال وهْب: وصلى عليه جبريل وميكائيل.

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٥٠.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٥٠، وتاريخ الطبري ١/ ٤٣٣ـ٤٣٤.

قال جدي رحمه الله في «المنتظم»: وفي هذا بعد، وحديث أبي هريرة يدلّ على غير هذا[١].

قلت[٢]: وليس في حديث أبي هريرة أن ذلك الملك قبضه، وإنما فيه: الآن من قريب؛ ويحتمل أن هذه الواقعة كانت عقيب حديث أبي هريرة بيسير، على أن حديث أبي هريرة موقوف عليه وليس بمرفوع على ما بيَّنَّاه.

وروي عن ابن عباس أنه قال: كان لموسى ثلاث بنات، فلما احتضر دعاهنَّ وقال لهن: أوصيكن بوصية فاعملن بها، كأنّي ببني إسرائيل وقد عرضوا عليكن الدنيا، فاحذرن منها شيئاً وعليكن بِلَقْطِ السُّنبل فافركنه واجعلنه زادكنَّ إلى الجنة[٣].

واختلفوا في موضع قبره على أقوال:

أحدها: أنه بأرض التيه هو وهارون، ولم يدخل الأرض المقدسة إلا رميةَ حجر، رواه الضحاك عن ابن عباس.

وقال وهب: لا يُعرف قبره، ورسول الله ﷺ أبهم ذلك بقوله: «إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر» ولو أراد بيانه لبيَّنَ صريحاً.

وأما الحديث الذي فيه ذِكْر الأرض البريصاء فقالوا: لا يصحُّ عن رسول الله ﷺ.

وقال ابن عباس: لو علمت اليهود قبر موسى وهارون لاتخذوهما إلهين من دون الله.

وقال ابن إسحاق: لم يطّلع أحدٌ على قبر موسى وهارون إلا الرَّخَمَةُ، فنزع الله عقلها لئلا تدلَّ عليه، ومعنى عقلها إلهامها.

والقول الثاني: أنه بباب لُدّ بالبيت المقدس، قال مجاهد: لما انتهت الأربعون سنة التي تاهوا فيها خرج موسى ببني إسرائيل من التِّيه وفتح أَرِيْحَا، وأتى البيت المقدس وقال لهم: ﴿ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾[البقرة: ٥٨] وقد ذكره أبو جعفر الطبري في «تاريخه» وقال: هذا هو الصحيح.

---

(١) «المنتظم» ١/ ٣٧٥.

(٢) في (ب): قال الشيخ أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله في المنتظم . . . قال المصنف رحمه الله.

(٣) تاريخ دمشق ٦١/ ١٧٥.

قلت: وكيف يكون هذا هو الصحيح وقد قال ابن عباس ووهب وعامة العلماء: إنه بأرض التيه. وذكره جدي في «التبصرة»[(١)]، وقال نبينا ﷺ: «إنَّ مُوسى قَال: أدْنِني مِن الأرضِ المقَدَّسةِ رمية حَجرٍ»[(٢)].

وقال ابن عباس ووهب: ما فتح أَرِيْحَا موسى، وإنما فتحها يُوشَع بنُ نون وهو الذي حُبِسَتْ عليه الشمس، لما نذكر.

وأما قوله: إن المراد بالقرية البيت المقدس، فقد قال ابن عباس: هي أَرِيْحَا قريةُ الجبَّارين، وكان فيها قوم من بقية عَاد يقال لهم: العَمَالِقَة ورأسهم عوج بن عناق، وقيل: هي بَلْقَاءُ، وقال ابن كيسان: الشَّام، وقال الضحاك: الرَّملَة والأُردُنُّ وفلَسطين وتَدمر، ولم يقل: إنها بيت المقدس إلا مجاهد وقد خولف.

وقال مقاتل: إيليَاءُ، قال: وكان للقرية سبعة أبواب.

والثالث: أن قبر موسى بين عَالِيَة وعويلة، وهما مَحَلَّتان عند مَسْجِد القَدم، ويقال: إنَّ عَالِيَة وعويلة عند كَنِيْسَة توما، ويقال: إنَّ قبره رؤي في المنام فيها، والأصحُّ أنه في تيه بني إسرائيل.

وحكي عن الحسن أنه قال: مات موسى في سبعة أيام من آذار ودفن في الوادي بأرض مُآب فصار قولاً رابعاً. ومآب ما بين بُصرى والبَلْقَاء.

والخامس: أن قبر موسى بدمشق، ذكره الحافظ أيضاً عن كعب الأحبار[(٣)].

وروى الحافظ أيضاً حديثاً عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «مررتُ ليلةَ أُسْرِيَ بي بموسى وهو قائم يصلي في قبره بين عالية وعويلة»[(٤)] وقال الحافظ على أثره: قال الحاكم أبو أحمد: هذا حديث غريب من حديث سعيد عن يونس عن أنس، لا أعلم أنه حَدَّث به غير الحسن بن يحيى الخشني عن سعيد، ثم قال الحافظ: وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه مرَّ على موسى ليلة الإسراء وهو يصلي في قبره من غير ذكر عَالِيَة وعويلة.

---

(١) انظر تاريخ الطبري ١/ ٤٣٦، وتفسيره (١٠٠٣)، والتبصرة ١/ ٢٢٤، والمنتظم ١/ ٣٧٦.
(٢) أخرجه ابن حبان (٦٢٢٣) عن أبي هريرة.
(٣) «تاريخ دمشق» ٢/ ٤١١ (مخطوط).
(٤) «تاريخ دمشق» ٦١/ ١٨٢.

obeikandl.com

قلت: والحديث الذي أشار إليه أخرجه مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَرَرْتُ ليلةَ أُسريَ بي على مُوسى عند الكَثيبِ الأحمرِ وهو قَائمٌ يُصلِّي في قبرِهِ»(١).

وقد ذكرنا أن موسى مات وهو ابن مئة وعشرين سنة.

وقال وهب: عاش موسى عليه السَّلام في ملك أفريدون عشرين سنة وفي ملك منوشهر مئة سنة.

وقال ابن عباس: بين إبراهيم وموسى عليهما السلام سبع مئة سنة.

فصل في فضل موسى عليه السلام

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: استبَّ رجلان، رجل من المسلمين ورجل من اليهود، قال المسلم: والذي اصطفى محمداً على العالمين، في قَسَمٍ أقسم به، وقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده فلطم اليهوديَّ، فمضى اليهوديُّ إلى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان من أمره وأمرِ المسلم، فقال رسول الله ﷺ: «لا تخيِّروني على مُوسى، فإنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ فأَكُونُ أوَّلَ مَنْ يُفيقُ، فإذا موسى باطِشٌ بِجانِبِ العَرْشِ، فلا أَدْري أَكَانَ فيمَنْ صُعِقَ فأفاقَ أو كانَ فيمن استَثْنَى اللهُ». مُتَّفَقٌ عليه(٢).

وقال أحمد بإسناده، وقد أخرجه الحميدي، وفيه: فقال النبي ﷺ للأنصاري: «لِمَ لطمتَ وجْهَ اليهوديِّ؟» فقال: يا رسول الله، فَضَّل موسى عليك وعلى البشر، فَغَضِبَ رَسُولُ الله ﷺ وقال: «لا تُفضِّلُوا بَينَ أَنْبِياءِ الله فإنَّهُ يُنْفَخُ في الصُّور فَيُصْعَقُ مَن في السَّمَاواتِ والأرض إلا مَنْ شَاءَ الله، ثُمَّ يُنْفَخُ فيهِ أُخْرَى فأَكُونُ أول مَن بُعِث، فإذا موسى آخذٌ بالعَرْشِ، فلا أدْري أَحُوسِبَ بصَعْقَةِ الطُّورِ أم بُعِثَ قَبْلي»(٣). وللبخاري: «إنِّي لأَوَّلُ مَنْ رَفع رأسهُ بَعْدَ النَّفْخَةِ فإذا موسى مُتَعلِّقٌ بالعَرْشِ» وذكره(٤).

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٣٧٥) عن أنس بن مالك.

(٢) أخرجه أحمد (٧٥٨٦)، والبخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٧٣).

(٣) أخرجه أحمد (١١٣٦٥)، والبخاري (٣٤١٤)، ومسلم (٢٣٧٣)، وانظر «الجمع بين الصحيحين» (١٧٥٨).

(٤) أخرجه البخاري (٤٨١٣).

قال أبو سليمان الخطَّابي: «الصَّعْقُ»: الموتُ، والأصح أنه مثل الغشي، وقوله ﷺ: «لا تخيّروا» منسوخٌ بقوله: «أنا سيّد ولد آدم ولا فخر»[١].

و«الباطشُ»: الآخذ، وإنما يأخذ موسى بساق العرش قبل الناس لأنه في صورة غريم يطلب الدين من غير مماطل ﴿فَسَوْفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ ومعنى الحديث: أنه صُعق مرةً فلا يحتاج إلى أخرى.

وفي مسلم عن أنس عن النبيِّ ﷺ قال: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بي على مُوسى عليه السَّلام قائماً يُصَلِّي في قَبْرِهِ»[٢].

وأخرج مسلم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «عُرِضَ عَلَيَّ الأنبياءُ فإذا موسى ضَرْبٌ من الرِّجَالِ كأنَّهُ مِنْ رجالِ شَنوءَةَ، وذكَر عيسى ابنَ مريمَ»[٣].

والضَّرب: الخفيف اللحم، ورجال شَنُوءة كانوا طِوالاً، ويقال: أزد شَنُوءَة، وقد تقدم هذا وأخرجه أحمد[٤].

وأما إسناد مسلم، فقال مسلم بإسناده عن جابر بن عبد الله، وذكره، وفيه: «ورَأَيتُ إبراهيمَ وأقربُ مَن رأيت به شبهاً صاحِبُكم، ورأيتُ عيسى وإذا أقربُ مَن رأيتُ به شَبَهاً عروةُ بن مسعودٍ»[٥].

فإن قيل: فهل تعرفون في المُحَدِّثين من اسمه موسى بن عمران؟ فالجواب: جماعة، منهم: موسى بن عمران أبو عِمْران السُّلَمي، حدَّث بدمشق عن أبيه وروى عنه جمح بن القاسم، ومنهم موسى بن عمران بن موسى بن هلال، سمع مَكْحُولاً البيروتي وأبا الحسن بن جَوْصا، وأباه وغيرهم، وكانت وفاته بسَلَمَاس في سنة ثمانين وثلاث مئة[٦].

❀ ❀ ❀ ❀

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٠٩٨٧).
(٢) أخرجه مسلم (٢٣٧٥).
(٣) أخرجه مسلم (١٦٧)، وهو عند البخاري من حديث أبي هريرة (٣٣٩٤).
(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤٦٢٩).
(٥) أخرجه مسلم (١٦٧).
(٦) تاريخ دمشق ١٧/ ٣٩٤ (مخطوط).